

A D E L S A L E M



عادل سالم

ليش ليش يا جارة؟



# ليش ليش يا جارة؟؟

مجموعة قصصية للكاتب

عادل سالم

صدر الكتاب الورقي عن

المؤسسة العربية للنشر في بيروت - 2007

## كلمة المؤلف

ليست الكتابة الأدبية مجرد كلمات تخط بسهولة على الورق، أوتنشر على صفحات الشبكة العنكبوتية، ولكنه إبداع يحتاج إلى الجهد، والمثابرة، والأدوات الفنية الملائمة لكي يصل إلى القارئ بسهولة، ويؤثر فيه، تماما مثل المعزوفة الموسيقية التي تحتاج إلى ملحن، وأدوات موسيقية تتناسب واللحن وعازفين يجيدون عزفها فتثير السامعين وتطربهم. ولكي يحول الكاتب نصوصه الأدبية إلى معزوفة موسيقية تدخل قلوب القراء، عليه العمل ليل نهار، دون كلل، ومن غير شعور بالرضى عن الذات لأن هذا الشعور يقتل الإبداع، ويحول صاحبه إلى ببغاء يردد ما يقوله الآخرون.

بين أيديكم المجموعة القصصية الثانية، (ليش يا جارة؟)، تصدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، في لبنان، وكانت قد صدرت المجموعة الأولى صيف عام 2006 بعنوان (لعيون الكرت الأخضر) تضم قصصا عن واقع المواطنين العرب المغتربين في الولايات المتحدة، وسيصدر لنفس الكاتب في العام القادم مجموعة جديدة بعنوان (يحكون في بلادنا).

(ليش يا جارة؟) خطوة ثانية في مسيرة الإبداع القصصي ستتبعها خطوات على الطريق الطويل.

صاحب المجموعة كما عودكم يفتح عقله، وقلبه لأرائكم، وانتقاداتكم، وتوجيهاتكم، فالكاتب الحقيقي هو الذي يتعلم ممن حوله، ويعرف كيف ينصت لهم قبل أن يبدأ بالكتابة.

يمكنكم ارسال آرائكم وانتقاداتكم إلى العنوان الإلكتروني التالي:

[adelsalem1957@gmail.com](mailto:adelsalem1957@gmail.com)

## الضحية لا تنسى جلادها

حاولت نسيان بعض الماضي فلم أفجح، لأن ما يبقى في الذاكرة يعيدني دون أن أدري لما أحاول أن أنساه، لذلك أحاول اليوم نسيان الماضي بجميع أحداثه.

اكتوبر 2006

كلما استمعت مصادفة إلى أغنية المطربة السورية ميادة الحناوي **أنا بعشقك** انتابتنى قشعريرة، وتمنيت لوأستطيع أن أخرسها للأبد.  
الرجال كذابون لا يستحقون أن أعشقهم أو أضيع وقتي مع أحدهم.

العشق كلمة ليس لها عندي سوى معنى واحد، العبودية، والذل والمهانة. لا لن أعشق أحدا منهم، كلهم مجرمون سفلة قتلة، وأنا إحدى ضحاياهم الكثيرة.  
أحيانا كثيرة أتساءل كيف تقبل المرأة أن تكون عشيقة لرجل مجرم سفاح قاتل، كيف تقبل أن تضمه تعانقه، وهي تشاهد جرائمه كل يوم؟!

كثيرا ما سمعت أمي الثانية تقول لي: يا أنا ليس كل الرجال مثل السفاحين الذين حاولوا قتلك، فهناك الطيبون... لكنني لا أدعها تكمل، وأرد عليها:

- لا لم أر رجلا طيبا حتى الآن؟

تهز رأسها وتبتسم وتضع يدها على كتفي فأحس بحنانها.  
**آنا** اسمي الجديد، فقد طلبت تغيير اسمي القديم سوسن، لأنني قررت أن أقطع كل علاقة لي بالماضي الرهيب.

كل عودة إلى الماضي ولو لثانية تذكرني بهما، بالمجرمين اللذين حاولوا قتلي، حاولت مرارا أن أنسى ذلك، لكن هيهات، هيهات، فالماضي يقف أمامي مثل شجرة كبيرة كلما قطعت جذعا منها نما بدلا منه جذوع جديدة.

آه لو أستطيع أن أقطع تلك الشجرة من جذورها، أعني يا رب على قطعها، فلم أعد أرغب أن أستظل بظلها، لا أحب ظل الشمس ولا عتمة الليل، لكنني أستعذب لحظة إشراقها.

هل فعلا أريد قطع تلك الشجرة من جذورها؟؟ ألا أحن لأمي المسكينة التي ابيض شعرها حزنا علي؟ ما ذنبها؟ كيف لها أن تعرف أن الشياطين كانت تتربص بي في الطريق عندما أرسلتني قبل عدة سنوات لشراء كيلومن السكر من البقالة القريبة، كان الوقت بعد مغيب الشمس بقليل، وكنت حينها في الحادية عشرة من عمري. كنا نسكن إحدى حارات عمان القديمة، في منزل جدي بلا مقابل، هذا المنزل عبارة عن غرفتين من الطوب، وسطحه من الزنك وأرضيته متشققة مغطاة بفرشات الإسفنج المهترئة، ينامون ويجلسون عليها ويستقبلون الضيوف.

ورغم أنني كنت الابنة الوحيدة ولدي 3 أشقاء لكن أمي أرسلتني لأنني أكبرهم جميعا.

لا أعرف كيف حدث كل ذلك معي! كأنه حلم لا زلت أعيش تفاصيله كل ليلة، الكوابيس لا زالت تزورني بين الفينة والأخرى. بعد خروجي من البقالة وبعد أن ابتعدت قليلا عن المحل قام شابان من الحي مجردين من الإحساس باختطافي بعد أن جراني إلى نفق متشعب، قاومتهم، صدقوني قاومتهم، لكنني لم أستطع التغلب عليهما.

كنت أعتقد أنهما يريدان سلبي ما اشتريته، فتركتهم يأخذانه، لكنهما كانا يريدان سلب شيء آخر لم أكن أفهم شيئا عنه. بكيت وتوسلت لهما، لكنهما رفضا توسلاتي، كانا يضحكان كمن اصطاد فريسة يبحث عنها منذ شهور، هجم علي الأول كمن يريد افتراسي، يا الله لم أصدق، ماذا يفعلان، أين أبي؟ أين أمي؟ أين أنت يا رب؟ ألم تقل إنك قريب تجيب دعوة الداعي إذا دعاك؟ ها أنا أدعوك أن تنجدني، أن تنقذني، يا رب! يا رب..... لم ينجدني أحد فقلت للرجل المتوحش: أرجوك، ألا يوجد لديك طفلة؟ ألا يوجد لديك أخت؟ حرام عليك، ألا يوجد بقلبك رحمة؟! ضحك وقال لي بصوته المتوحش:

- لا تخافي لن يؤلمك كثيرا، سأحاول أن أجعله بدون ألم فأنا خبير بذلك. وأجاب الثاني بجلافة:
- سوف تشعرين بلذة، وضحك ضحكة طويلة وعالية.

لم أكن أعرف عن أية لذة يتحدثان ولم أعد أريدها أو أحلم بها. كرهت كل الجنس منذ تلك الحادثة، وعندما كبرت قررت أنني لن أتزوج ولن أفكر في الجنس الآخر. كيف أفكر بجنس يبحث عن لذته في عذاب الآخرين؟ لم يابه لبكائي ولم يستمع لتوسلاتي. ضرباني، مزقا بعض ملابسني، كانت أيديهما تنهش بلحمي مثل أسد يلتهم فريسته، كانت أصابعهما أشد فتكا من أنياب أسد جائع فالأسد يفتك بفريسته قبل أكلها، أما هذان المجرمان فكانا يريداني أن أتفرج على افتراسي.

قاومت بكل طفولتي وبراءتي، كانت يدي الصغيرة تقاوم أنياب الوحشين الكاسرين، صرخت بصوت لم أعهده في نفسي لعل أحدا يسمعي، استنجدت بوحوش أخرى لتنقذني من الوحشين الجائعين، لا أعرف إن سمعني أحد، كل ما أذكره أنني لم أر أحدا قادمًا لنجدتي، تخيلت في تلك اللحظة أمي وأبي، تصورت إخوتي الصغار يقاومون معي أنيابهما الكاسرة، لم يتركاني، استمرا في ضربني، أمسكت يد أحدهما ولا أعرف كيف ألهمني الله أن أعضاها وضربت الثاني بقدمي في قضيبه الذي كان يهددني به، دققت في وجهيهما فارتسمت صورتهم في خيالي ولا زالت تؤرقني حتى اليوم.

باستطاعتي التعرف عليهما من بين مليون صورة ولو حتى بعد ألف سنة.  
هل يمكن للضحية أن تنسى جلادها؟ هل يمكن للضحية أن تسامح، أو تصفح؟!

كانوا قريبين من سكة حديد المنطقة فجراني إليها، وهناك قررا على ما يبدو التخلص مني، قررا قتلي، فبدأ أحدهما بضرب رأسي بسكة الحديد، فتطايرت الدماء من كل صوب.

- يا الله لماذا تتركهما يرتكبان جريمتهم دون ذنب اقترفته؟
- لقد دعوتك أنا الطفلة التي علمتها أمها أن الله يحب الأطفال، أنا الطفلة التي لم تعرف بعد معنى الفاحشة

والجريمة، أنا الطفلة التي كانت البراءة تشع من عينيها، آخ وأخيرا، ها هو القطار يقترب، استبشرت خيرا قلت لعلهم يتركانني الآن ويهربان لكنهما انتظرا حتى اقترب القطار فرمياني تحته وهربا.

صرخت بأعلى صوت ردد كل الأطفال صداه ..آخ، فتوقف القطار بعد أن مرت عجلاته على قدمي فطحنتهما، وفصلتهما عن جسمي النحيل ولم أعرف حينها ماذا حصل.

أفقت في المستشفى في اليوم التالي لأرى أمي وأبي من حولي، سألتهما أين أنا؟ هل أنا في الآخرة، بكت أمي زيادة على بكائها وضممتني إلى صدرها.  
- أنت طيبة يا سوسن: الله لطف.  
حاولت تحريك رجلي فلم أستطع وعرفت بعد أن تحسستها أنني فقدت قدمي، سائق القطار الذي أحس بجسم يرتطم بالقطار أوقفه ليكتشف أنه قطع ساقَي طفلة دون أن يعرف.  
بلغ الشرطة وأقسم منذ تلك اللحظة أنه لن يعمل كسائق للقطار بعد ذلك اليوم.

كان المستشفى الذي أنزلوني فيه مستشفى حكوميا، مكتظا بالناس، طالب أهلي نقلي إلى مستشفى أفضل فطلبوا منهما أن يدفعوا مبالغ باهظة لم تكن متوفرة، استنجد أبي بالمؤسسات الحكومية، كان يصرخ:

- إن لم تستطيعوا حمايتها فعلى الأقل عالجوها!!  
لم يسمع صوته أحد، ولم يعثر أحد على المجرمين.

جلست في البيت بدون ساقين، عدت أزحف من جديد، صرت عالية على أهل بيتي، وأضفت لوالدي هما جديدا لم يكن يتوقعه.

كانت المؤسسات الاجتماعية تزورنا لكي تعلن تضامنها معي، وتبحث إمكانية مساعدتي في تركيب ساقين اصطناعيين. كانوا يعتقدون أن الساقين الاصطناعيين سيحلان المشكلة، لم تكن أمي ولا أبي يعرفان أنني لم أعد سوسن التي عرفاها وأنجباها.

كانت صور المجرمين تزورني كل فترة في منامي، كنت أصرخ وأحاول الهرب منهما، فيستيقظ الجميع علي صراخي، كانت أمي توقظني وتقول لي حبيبتي أنت في أمان إنه حلم، بل كابوس كان يقتل في كل إحساس بالأمان، تحولت إلى طفلة شبه مجنونة، لم تستطع أن تتخلص من كوابيس جلاديتها حتى اليوم، لكن تغيرت الصورة كثيرا فيما بعد، فلم أعد أخافهما، بل أقاومهما في كوابيسي والاحقهما، وأغرس في جسديهما أظافري.

فبعدهما كنت أهرب منهما أصبحا دائمي الهرب مني. في المرة الأخيرة هربا فور رؤيتي، كان أحدهما يحمل طفلا صغيرا، فلاحقت بهما، كانا يركضان وأنا أركض خلفهما، فجأة سقط الطفل على الأرض، فانحنى أبوه يحمله لكنه لم يستطع لأنني وصلت إليه وصرت فوقه رقبتة:

- أرجوك افعلي أي شيء لكن دعي ابني يعيش؟
- وهل تركتني أعيش؟
- اقتليني أنا المجرم
- وهل أنا بحاجة إلى اعترافك بالجريمة؟
- التقطت الطفل عن الأرض، فكانت أنثى حملتها وطلبت منه أن يهرب فقال لي:
- لا تقتلي ابنتي
- لن أقتلها، بل سأحييها
- وأين ستأخذينها؟
- لأحميها منك
- لكنني أبوها
- وهل ستكون حريصا عليها؟
- طبعاً
- لا أعتقد أن من يقتل أطفال الناس سيكون رحيما بأطفاله.

كان يصرخ، يبكي، يتألم، وأنا أحمل الطفلة وأعود بها من الكابوس الكبير إلى... فتحت عيني فإذا بي في سريري وأمي الثانية بجانبني، تضع يدها على رأسي وتمتم.

لا أعرف أي ملاك يسكن هذه الأم الجديدة التي قبلت أن ترعاني وتقف بجانبني منذ اليوم الأول لحضوري إلى السويد،

فبعد أن ساءت حالتي النفسية وصرت أتصرف كالمجانين كما قالوا وافقت أُمي وأبي على أن تتكفل مؤسسة سويدية علاجي وتعليمي في السويد، لأن حالتهم المادية لم تسمح لهم بعمل أي شيء، سافرت إلى السويد فكانت هذه الأم في استقبالني وصرت أنا بالنسبة لها كل شيء، كانت تعيش وحدها فصارت كل شيء في حياتي.

تحملت كل أزماتي النفسية، كانت مثل خادمة ترعاني ليل نهار، منحتني الحنان والأمان، علمتني اللغة السويدية التي أحببتها، وريدا رويدا نسيت اللغة العربية، ليس كرها بها لكن ربما لأنها كانت جزء من الماضي الأليم.

أحاول أن أنسى بعض الماضي وأتذكر بعضه الآخر، فلم أفلح لذلك صرت أحاول نسيان كل الماضي، وكل ما يتعلق به لعلي أنسى تلك الجريمة البشعة، لكن كيف أنسى الجريمة، وهي تعيش معي كل يوم؟ وهل يمكن للضحية أن تنسى جلادها؟؟ هل يمكن لها أن تغفر؟ كيف يمكن تحويل الحقد الكامن في قلبي لكل معشر الرجال إلى حب حقيقي؟

آخ لو يخترع الأطباء دواء يشفي الناس من ذاكرتهم المؤلمة، لأنها أحيانا تكون أكثر ألما من المرض نفسه، لكنت أول المتقدمين لشرائها.



# العائد من الموت

مارس 2005

ركضت مسرعا، محاولا أن أفلت منه، رغم أنني لست سريعا في العدو فوزني يمنعني أن أركض بسرعة، لكنني أحاول كل جهدي أن أكون أسرع منه. خوفي أن يمسكني يجعلني أطير كأنني بوزن الريشة.

يا إلهي كاد أن يمسك بي فأنا أسمع وقع خطواته خلفي تماما. أسرعت الجري، فأنا بين الحياة والموت. لن أتركه يمسك بي. لن أترك هذه الحياة بسهولة، ليس أمامي من خيار ثالث إما الإفلات بأية طريقة وإما الموت. يبدو أن من يواجه الموت يقاوم بشراسة حتى الرمق الأخير، إنها حرارة الروح التي طالما سمعت عنها.

- ياربي ساعدني فأنا الآن أحتاج لرحمتك أكثر من أي وقت مضى. أولادي بحاجة لي، كيف أتركهم وهم صغار السن، لا زال شادي الصغير الآن ينتظرنى وراء الباب، يا الله لم أقبله هذا الصباح قبل أن أغادر البيت كغير عادتي.
- ليته يأتي الآن ويفتح لي باب النجاة.
- أقسم لونجوت من هذا الموت لأصلين شكرا لله.
- الآن تذكرت الله، وكأنه بحاجة لصلاتك وصيامك؟!

يا إلهي لا زال يركض خلفي، كيف لم يمسك بي حتى الآن يبدو أنه يريد إرهابي قبل أن يهجم علي ليغرز أنيابه في جسمي، ما هذه الحرارة التي دبت في جسمي، أكاد لا أحس بقدمي، ولا أعرف كيف أركض دون تعب. إنه الخوف، لكنني لا أعلم أهو خوف من الموت أم خوف على الأولاد من بعدي أم ماذا؟....

لم لا أحاول الالتفات خلفي لأعابن المسافة بيني وبينه،  
- لا لا هذه فكرة سيئة فالالتفات للخلف يقلل من سرعتي للحظة فيقترب مني أكثر وربما أسقط على الأرض فيهجم علي، كلا لن ألتفت.

لا أدري لماذا قدمت إلى هذه الغابة؟؟ ما الذي أقنعني أو أغراني  
بهذه المخاطرة للصيد؟ أنا لم أذهب للصيد طيلة خمسين سنة  
فما الذي أدخل هذه الفكرة في رأسي، كما يقول (المثل بعد ما  
شاب أرسلوه للكتاب).

ترى ماذا تفعل الآن زوجتي مع الأولاد؟ أتراها تعد لهم طعام  
العشاء؟  
سعيد جالس يشاهد التلفزيون كعادته في تلك الساعة، وعصام  
الآن يضرب شادي لأنه يلعب في ألعابه.

يا أحبائي العبوا معا، عيب يا بابا تضرب أخاك، هذا أخوك حبيبك.  
- يا بابا أخذ لعبتي  
- طيب يا بابا العب في غيرها  
- لا يا بابا هو يلعب في غيرها  
- طيب يا حبيبي العبا معا  
-

يا سلام لقد اقتربت من شجرة عالية، ماذا لو فكرت التسلق فوقها  
بسرعة لكن من يضمن أن أتسلقها بسرعة إذ ربما ينقض علي  
قبل أن أبدأ بالتسلق، لا لا لن أتسلقها سأستمر بالجري وسوف  
لن يمسك بي.

أصبحت عداءا كبيرا مثل شيبوب الأخ الشقيق لعنتر.  
أين أنت يا عنتر، أه لو تعيرني سيفك للحظة، لكن ماذا أفعل  
بسيف عنتر؟ فانا بالتأكيد لن أستطيع حمله ولا أعرف كيف  
أستخدمه.

آخ أخ يبدو أنه وصلني، شعرت بيده تضرب مؤخرتي، يبدو أنها  
شقت البنطلون، ترى أي جرح ترك تحت البنطلون؟  
اقتربت ساعة الموت. ياه لو أضرم أولادي ضمة واحدة لصدري  
يا رب أحطهم بعنايتك إن لم أعد لهم.  
ربي إني أستودعك أبنائي فليس لهم غيري.  
لم أترك لهم مالا يعيشون به.  
صحيح أن إخوتي كثر لكني على علم أن أحدا لن يسأل عنهم،  
فكيف يسألون عنهم بعدي ولم يسألوا عنهم وأنا حي.  
أعمامي سيقفون بجانبهم، لن يتركوهم يحتاجون أحداً.

ها ها ها، أعمامي؟! الشيء الوحيد الذي يصلحون له هو حضور  
حفلات الزواج لتناول الغذاء.  
رحمك يا ربي، أموت بهذه الطريقة؟  
رحمك الله يا عمر الخيام:

الموت حق لست أخشى الردى  
وإنما أخشى فوات الأوان.

ما الذي فعلته لتكون نهايتي هذه النهاية السوداء؟  
اللهم إني أستودعك أولادي فلا أريدهم أن يعيشوا على الصدقة  
ولا على إحسان الأقارب.  
آه يا ربي ما هذا يبدو أنني اقتربت من واد كبير.

أنا على سفح جبل، إذا سقطت منه سوف تكون نهايتي الموت  
سقوطاً من أعلى الجبل لأسفل الوادي. لا خيار عندي إما الموت  
بفكي حيوان مفترس وإما القفز إلى قعر الوادي السحيق. خياران  
أحلاهما مر.

لا لا الموت من أعلى الجبل أسهل، على الأقل سأموت مرة  
واحدة لكن لوألقي القبض على هذا الوحش اللعين فسوف  
يأكلني قطعة قطعة، سأتفرج عليه يأكلني، وسأصرخ عندما يغرز  
أنيابه في رقبتني حتى الموت.  
- لا لا لا لا أريد أن أموت هكذا.  
- حسنا علي القفز من قمة الجبل، لأهيه نفسي الآن.

لقد تعبت من الركض، على كل حال لم يبق عندي أي خيار آخر.  
ها أنا أقرب من حافة الجبل المطل على الوادي لأسرع أكثر.

واحد اثنان، ثلاثة...  
أغمضت عيني ثم قفزت بكل سرعة  
- هوب يا الله، أشهد أن لا إله إلا الله  
فجأة شعرت بشيء وقد أمسك برجلي يبدو أنه قفز خلفي،  
أطبق أنيابه على أحد أقدامي فصرخت من شدة الألم:  
- آآآ...

كان ألما شديداً وصراخي أشد، صرخت بأعلى صوتي وردد الوادي  
معي صرخات الألم وكأن الأرض اهتزت لألمي.

فتحت عيني لأجد نفسي على السرير وزوجتي تهز بي وتتمتم:  
- بسم الله الرحمن الرحيم  
وابني الصغير يبكي على سريريه.  
نظرت حولي غير مصدق هل كنت في حلم؟؟  
تحسست رأسي وجسمي ورجلي، وزوجتي تسألني:  
- خير اللهم اجعله خيرا.

لم أجبها.  
قفزت من السرير، ذهبت إلى الحمام نظرت إلى وجهي في  
المرآة، كان شاحبا جدا يشبه وجه الأموات وتبدو عليه كل ملامح  
الخوف.  
لم يكن مجرد حلم.  
- يبدو أنني كنت في رحلة موت، لكن الله كتب لي عمرا جديدا.  
- لكنني أقسمت لوعدت سالما أن أشكره على ذلك.  
- أخاف أن أموت قبل أن أشكره، العمر قصير ولا تؤخر عمل اليوم  
إلى الغد.

فتحت حنفية الحمام أو الدوش، وبدأت بالاستحمام  
توضأت وصليت الفجر.

## رحلة في عيون حبيبتى

أكتوبر 2005

فجأة وجدت نفسي أسير خلفها دون أن أقصد في شارع غير مزدحم بالمارة كانت تسير واضحة قدما مكان الأخرى تتمايل مثل البطة التي تسير متنزهة على شط بحيرة تحيط بها الأشجار من كل جانب، مطمئنة بأن رصاص الصيادين لن يصلها لأن الصيد ممنوع على شواطئ تلك البحيرات.

لعلها كانت تبحث عن شخص محدد، عن حبيب، أوتحاول أن تقتل الوقت إذ كان سيرها بطيئاً، تلتفت ذات الشمال وذات اليمين تمتع عيونها بمناظر الشارع الجميلة.

أثارت فضولي فبقيت أتبعها، سقط منديلها الذي كانت تحمله بيدها على الأرض فانحنيت والتقطته لها، وعندما رفعت رأسي كانت قد استدارت وانحنت مثلي لتلتقطه فالتقت عيناى بعينيها، وزهدبها اللذين تدليا كأنهما الشمس والقمر فى منتصف النهار، أرايتم قمراً وشمسا معاً؟

لم ألتفت للنهدين كثيرا فقد سحرتني عيونها التي لم أر مثلها من قبل اقتربت منها وأنا أقدم المنديل لها تاركا عيوني تخاطب عيونها كقول البحترى:

فتخرس منا ألسن حين نلتقي

وتنطق منا أعين وقلوب

دققت بعينيها مسحوراً، اقتربت أكثر لم أتمالك نفسي، قفزت في داخلهما لأرى ماذا تخبىء بهما ومن أين لها كل هذا الجمال.

وجدت نفسي أسير في بستان من الورود، التي لم أعرف لها أسماء، بعضها كان مألوفاً لدي والآخر لم أره من قبل، تابعت

- سألتها لمن هذه الوردة؟ فقالت:
- هي لك.
  - لي أنا؟.
  - نعم.
  - وهل كنت تعرفين بحضوري؟
  - هزت رأسها فقلت لها:
  - ألا يوجد أحد هنا؟.
  - لا أنت الوحيد الذي دخل هنا.
  - يالخطي، لا أصدق، كل هذا الجمال وهذه الطيور و... أنا
  - الوحيد الذي يكتشفها؟
  - حتى هذه اللحظة.
  - وماذا تفعلين أنت هنا؟.
  - أنتظر من أقدم إليه باقة ورد.
  - ومتى جئت إلى هنا؟.
  - منذ زمن، جئت أبحث عنك فلم أجدك.
  - تبحثين عني وكأنك تعرفينني؟
  - نعم عرفتك من قبل.
  - كيف؟.
  - زرتني في منامي، لم يكن حلماً، كانت رؤيا والرؤيا لا تكذب.
  - هل تقبلين العودة معي؟.
  - إلى أين؟.
  - لنعيش معاً.
  - ونترك هذه الجنة الجميلة؟.
  - هي فعلا جميلة لكن لا يوجد أحد هنا، سنعود بين اللحظة
  - والأخرى.
  - هل تعرف أن من يدخل هنا لا يعود، وأنا إن خرجت لن
  - تراني.
  - كيف ذلك؟.

- أنا أختفي حالما أخرج من العيون، هي بيتي ومملكتي.
- فكرت قليلاً ثم قلت:
- حسناً هل يمكنني البقاء عندك؟.
- سأسجنك في هذه الجنة.
- موافق.
- ستضطر للعيش على الجداول وشطوط البحيرات وبين الأشجار.
- موافق.
- ممنوع صيد العصافير والطيور لأنها تعزف لنا لحن الخلود.
- حسناً، وماذا سنأكل؟.
- سنأكل الفواكه والخضار.
- قبلت العرض.
- نظرت إلي مبتسمة، اقتربت مني، تعانقنا كأن عهداً جديداً قد بدأ وضعت يدي بيدها وبدأنا نسير في الغابة ذات الأشجار الكثيفة.
- فجأة تعثرت قدمها في جذع شجرة على الأرض فسقطت، ضرب رأسها على حجر صغير، سال دمها، وفجأة بدأت تحتضر.
- إلى اللقاء يا حبيبي يبدو أن هذا لقاءنا الأخير.
- آسفة لإنني سأتركك وحيداً.
- حبيبتى لن تموتي.
- آسف لكنني سأموت. لماذا جئت إلى هنا؟.
- جئت أبحث عنك.
- أتعرف أنك الآن لا تستطيع الخروج من هذه العيون؟
- وهل سأبقى وحيداً هنا؟.
- نعم.
- إلى متى؟.
- حتى يأتي أحد مثلك يفحص ما الذي تخبئه له العيون الخضراء.
- لا أصدق.
- أرسلت لي قبلة في الهواء وأسلمت روحها واختفت كأنها لم تكن موجودة، تناثرت في تلك الجنة الملعونة.
- وأخيراً بقيت وحدي.

ما الذي تعنيه الجنه بعد أن صرت وحيداً؟ آه ليتني لم ألتقط ذلك المنديل اللعين، ماذا سأفعل؟ ليس لي سوى الانتظار.

جلست قرب النبع على تلك الصخرة التي كانت تجلس عليها حبيبتي أناجيها وأنا أشم وردة أحملها في يدي وأتذكر لحظاتي السعيدة معها.

تساءلت وأنا أنثر الورد في النهر ليلحق بها: من تعيس الحظ القادم الذي سيحاول أن يكتشف سر العيون الخضراء؟



## الحالمة بالسعادة

أكتوبر 2005

كانت على فراش الموت، لم يفصل بينه، وبينها سوى ثوان فقط، حتى بدأت تلقي وصيتها على أولادها الذين يحيطون بها، كأنها كانت تعرف أن الموت ينتظرها بالباب. أوصيكم، لا تتفرقوا، سامحوني إن قصرت معكم. وقبل أن تكمل فارقت الحياة. عجيب أمر هؤلاء الذين يحتضرون كأنهم يعرفون موعد الموت، أو كأنهم يرون ملك الموت أمامهم قادمًا ليقبض أرواحهم، ماتت أمي رحمها الله. أسلمت الروح لباريها قبل أن تبلغ الخمسين عاماً بعد أن هاجمها سرطان الكبد فلم تقو على مجابهته. هاجمها ليفتك بها بعد أن أفنت عمرها تحلم بالسعادة لكنها لم تعيش منها يوماً واحداً.

كانت رحمها الله كالأعمى الذي لا يرى الأشياء لكنه يسمع عنها ويصفها كما يسمعها لا كما يستمتع برؤيتها. فمتعة الأعمى أن يسمع الآخرين يصفون الأشياء كما يرونها فيفرح لفرحهم. لم تعرف السعادة منذ ولادتها وكانت تسمع عنها من الآخرين فتسعد لسعادتهم.

ما أصعب أن يفقد الابن أمه، لكن أمي كانت بالنسبة لنا شيئاً خاصاً يختلف عن أمهات الناس الآخرين كانت كبستان الورد الذي أتت عليه ريح شديدة أو إعصار مثل تسونامي فأحاله خراباً، ولم يبق منه إلا ذكريات. الفارق الوحيد بينهما أن بستان الورد يمكن ترميمه وإعادة زراعته من جديد لكن أمي يصعب إعادتها أو استبدالها.

عاشت مظلومة منذ طفولتها فقد زوجها قبل أن تبلغ الرابعة عشرة وأنجبت أول طفل ولم تبلغ الخامسة عشرة، وقبل أن تبلغ الثلاثين كان لديها عشرة أطفال فقالت لوالدي:  
- يكفي لم أعد أحتمل.

لكن والدي رفض لأن هذا ضد الدين كما قال، ولأن الله يرزق الناس بالأبناء ورزقهم معهم، لم تقتنع أمي بكلامه لكنه لم يفرض رأيه كعادته، لأنه تركها ومات فقد صدمته سيارة وهو

كانت الشئون الاجتماعية فى الأردن تمنحنا سبعة دنانير شهريا (عشرة دولارات حاليا) تصرف منها أمي دولارين على المواصلات وطوابع الأوراق فلا يبقى سوى ثمانية دولارات.

أولاد الحلال كثيرون لم ينسوا جيرانهم الفقراء فعشنا على الصدقات. كانت أمي جميلة. أكثر أخواتها جمالا، لكن حظها العاثر لم يجلب لها سوى المصائب. بعد وفاة والدي تقدم أحدهم لخطبتها لكنه اشترط أن تتخلى عن الأولاد فبصقت عليه.

- أولادي روعي قالت لكل الناس الذين عرفوها. كانت تعمل ليل نهار فلم يكن عندنا آنذاك لا غسالة ولا ثلاجة ولا حتى فرن غاز.

وعندما كبرنا جميعا ولم يبق فى البيت أحد سوى (آخر العنقود) أصيبت بمرض السرطان، لم نستطع أن نفعل شيئا فمن أين لنا بكبد جديد ومن أين لي بثمن العملية الجراحية؟

ماتت أمي رحمها الله بعد رحلة المعاناة الطويلة، وكانت قصتها أشبه بقصة "أبي جبر". وهل كان والدي إلا نسخة منه. كان يتمنى طيلة حياته أن يضع فى جيبه مائة دينار أردني مرة واحدة، فمات قبل أن يحقق حلمه. ترى لواعتبرنا أعمار الناس بعدد أيام السعادة فى حياتهم فكم أبي جبر سيكون عندنا؟!.

## طفلة بألف حكاية

تموز 2006

كان سامر سعيدا جدا عندما زفت إليه أمه نبأ موافقة أهل سناء ليكون عريسا لابنتهم، فقد كان حلمة منذ سنوات أن تكون سناء زوجته، وطالما قال لأمه: إن زوجتموني سناء سأكون ابنكم المطيع.

فتسأله أمه بعد أن تعقد حاجبيها:

- وهل انقطعت النساء في الدنيا؟ ما الذي يحبك بها؟
- لا أعرف سر هذا الحب يا أمي.

وزادت سعادته سعادة جديدة عندما عرف من زوجته بعد شهر أنها حامل، وبدأ يعد الأيام المتبقية ليرى فيها ولي عهده القادم. ثم بدأ يعطي أوامره لزوجته:

- لا تتحركي كثيرا، لا ترفعي أي شيء ثقيل، لا تغسلي، لا.. لا.. لا.

لم يبق شيء لم يحذرهما منه، باختصار كان ينذرهما إن حصل للجنين أي مكروه فلن يرحمها.

يوم الأربعاء المشؤوم يذكره سامر جيدا، عاد إلى البيت مبكرا، فلم يجد زوجته، فاشتاط غضبا، أين تكون قد ذهبت؟

- لقد نبهتها ألف مرة أن لا تخرج من البيت دون إذني.
  - الغايب حخته معاه.
  - ليت عندي هاتفا خلويا لكن هيهات فالراتب لا يكفي.
- فجأة قطع عليه حبل تفكيره طرق على الباب، فتحه فإذا جاره صبحي بالباب، رحب به، لكنه لم يدعه يكمل جملته وقال له:
- زوجتك ذهبت إلى المستشفى، وكانت في وضع صعب له علاقة بالجنين.

صعق سامر من الخبر، سناء في المستشفى؟؟ لا بد أن شيئا غير محمود حصل للولد وإلا لماذا كل هذه السرعة.

- وصل سامر إلى المستشفى، وبعد الاستفسار من الاستعلامات قالت له الموظف المسؤول:
- مبروك إنها في غرفة الولادة.
- في غرفة الولادة؟! استغرب سامر وقال يخاطب نفسه:
- أتكون في طريقها للإجهاض؟

- بسرعة البرق كان بعد فترة قصيرة في الغرفة، وزوجته سناء مستلقية على السرير وبجانها طفل صغير، ظن في البداية أنه أحد أطفال النزلاء في القسم، فسألها:
- ماذا جرى لك ولماذا أنت هنا؟
- لقد ولدت يا سامر، ألا تشاهد ابنتك؟
- تغير وجه سامر، احمر واصفر، وسألها:
- هل ولدت؟
- نعم.
- وهذه ابنتي؟ وأشار إليها بيده.
- نعم انظر، ألا تشبهك يا سامر، سبحانه الخالق الناطق.

- تمتم كلمات غير مفهومة، وقال لها سأعود بعد قليل، تركها وذهب إلى غرفة الطبيب المناوب وسأله:
- هل يمكن لزوجة أن تنجب طفلا بعد أربعة شهور من الحمل؟
- لا طبعا، سيكون غير مكتمل النمو.
- ثم أكمل قائلا هل كانت فترة الخطوبة طويلة؟
- نعم، لكن ماذا تقصد؟
- لا أقصد شيئا لكن كثيرا من شباب هذه الأيام يفعلونها قبل إتمام الزواج، فربما...
- لا يا دكتور أنا لم أخرج معها إلى أي مكان حتى موعد زواجنا.
- عاد سامر للغرفة حيث زوجته وقال لها:
- سناء أجيبني بصدق ابنة من هذه؟
- ماذا تقصد أتشك بي؟
- لم يمر على زواجنا سوى أربعة أشهر فكيف تكون ابنتي؟
- هذه قدرة الله يا سامر ألم تحمل مريم بالمسيح دون أن تتزوج؟
- دعينا من المسيح الآن وأصدقيني القول فقد نفذ صبري: ابنة من هذه الطفلة؟

- ابنتك يا حبيبي.  
- حسنا أنت طالق يا سناء.  
قالها ثم خرج من الغرفة.  
مر على غرفة الطبيب وقال له هذه ليست ابنتي فلا تسجلها  
باسمي. وغادر المستشفى على الفور.

لم تعرف الأم ماذا تعمل، وزاد همها عندما قال لها الطبيب إن  
إدارة الشؤون رفضت تسجيلها في السجلات الرسمية حتى  
يحضر أبوها، فقالت لهم سناء إنه سامر، لكن الطبيب رفض  
ذلك قائلاً: سامر قال إنه ليس أبها.

- ما العمل يا دكتور؟  
- لا أعرف لكن لن نعطيك شهادة ميلاد إلا إذا جاء من يقول  
إنه أبوها. سكت ثم أكمل قائلاً:  
- لماذا لا تفحصوا ما يسمى بالدي إن إي لتأكدوا؟  
صمتت دون إجابة وقالت:  
- اقتراح جيد افحصوني إن أردتم.  
- لكن لا نستطيع أن نفعل ذلك على حسابنا، وهذا يحتاج  
لأمر محكمة.  
- إذن سأخذها بدون شهادة ميلاد.  
- لا هذا غير ممكن.  
- يا الله وماذا أفعل؟  
- احضري لها أبا.  
- من أين.  
- لا يهمني من أين، إن شاء الله تحضره من الشارع، المهم  
أن يأتيني رجل ويقول هذه ابنتي وأنا أبوها.

تركها الطبيب وهي غارقة في تفكيرها لا تدري ماذا تفعل، بعد  
أن قال لها إن لم يأت أبوها صباح اليوم التالي فسوف يتم  
تسليمها للملجأ بمعرفة الشؤون الاجتماعية.

- إنها طفلة جميلة، حرام أن تكون نهايتها في الملجأ.

وزارة الشؤون الاجتماعية أصرت أنها لن تصدر لها شهادة ميلاد إلا  
إذا عرف أبوها. أغضب هذا الكلام أحد الممرضين فقال للمدير:  
- أي ظلم هذا؟ طفلة تفقد أمها وأبها وتحرم من شهادة  
ميلادها؟

- ماذا نفعل إذا كان مسؤول الشؤون الاجتماعية يرفض ذلك؟
- هذا ظلم
- لماذا لا تقل ذلك لأبيها؟
- أين هو لأقول له ذلك؟
- على كل حال اسمع إن كنت مهتما بها فلماذا لا تسجلها باسمك، وتكسب ثوابا عند الله؟
- ماذا؟
- كما سمعت، يا أخي أنت تحل مشكلة، وبعد فترة لا بد أن يأتي أبوها وتكون قد نلت ثوابك.
- وأكون مدينة لك طيلة حياتي، قالت له الأم.

فكر الممرض فريد قليلا وقال للمدير:

- قبلت العرض
- فتم تسجيلها رسميا باسم الممرض فريد.
- فوجئ الطبيب والممرضين جميعا صباح اليوم التالي أن سناء اختفت من المستشفى، ولم يعد لها أي أثر.
- حمل الطبيب الطفلة وقال للمدير بعد أن حضر للاطلاع على المشكلة:
- هربت الأم، فماذا نفعل؟
- نسلمها للممرض فريد فهو الآن رسميا أبوها

صعق فريد لما جرى، وبدأ يصرخ

- كيف أخذها، لقد اتفقنا لتسجيلها حتى تخرج الأم مع ابنتها، ولكن في هذه الحالة أنا لست مسؤولا.
- لكنك الآن أبوها، ولا نستطيع أن نصدر لها شهادة ميلاد جديدة.
- اتصلوا بالشؤون الاجتماعية، وخلصوني من الورطة.

اتصل المدير بالشؤون الاجتماعية، وشرح لهم الموقف، لكنهم قالوا له إن البنت سجلت باسمه، ولا يستطيع أحد أن يغيرها إلا بقرار المحكمة.

- لا إله إلا الله ما هذه الورطة يا رب؟
- اسمع يا فريد لدي اقتراح لماذا لا تذهب لتسلمها إلى ملجأ الأيتام؟
- فكرة رائعة، هيا بنا

انتهى فريد من كل الإجراءات ونقله المدير بسيارته مع الطفلة ليسلمها إلى الملجأ، لكنه فوجئ أن إدارة الملجأ ترفض استلامها.

- لماذا أستم مؤسسة للأيتام والمشردين؟
- نعم ولكن لسنا ملجأ للذين يريدون التخلي عن أولادهم؟
- لكنها ليس ابنتي، وشرح لها الحكاية. هزت المديرة رأسها وقالت:
- لكن شهادة الميلاد تقول إنك أبوها، وكيف لي أن أعرف إنك لست أبها؟ أنا أتعامل حسب الأوراق.
- هل تريدني أن أرسلها لك مع شخص آخر.
- ليس الآن فأنا أعرف أنها ابنتك، سأطلب الشرطة إن لم تخرج.

خرج فريد يلعن اليوم الذي قبل أن يسجل البنت باسمه، استقل سيارة أجرة، وذهب إلى بيته. دق الباب، فتحت زوجته، نظرت إليه مستغربة، وسألته:

- ما الذي تحمله بين يديك؟
  - طفلة بألف حكاية.
  - طفلة؟ طفلة من؟!
  - اتركيني أستريح وسأشرح لك كل شيء.
- تركته زوجته بعض الوقت يستريح ثم قالت بعد أن سمعت قصتها:
- قصة غريبة، وهل تعرف أين تسكن أمها؟
  - لا لا أعرف.
  - وكيف تقبل أن تأتي بها وأنت تعرف حالنا؟ هل جنت يا فريد؟
  - قلت لك لم أكن أعرف أنني سأتورط بها.
  - اسمع لا أصدق تخاريفك، مجنون يحكي وعاقل يسمع.
  - ماذا تقصدين؟
  - أنت تعرف ماذا أقصد، هذه ابنتك من زوجتك السرية، أومن بنت حرام رفضت أن يكشف أمرها فجئت بها هنا وألغت الحكاية. أعتقد أنني مجنونة أصدق أكاذيبك، شهادة الميلاد تقول إنك أبوها...
  - يا بنت الحلال شرحت لك ماذا حصل.

- يا سلام هل تعتقد أنني صدقتك؟ بنت، وشهادة ميلاد، وأمها ضايعة!!!
- ما رأيك أن تأتي غدا للمستشفى للتأكد من الممرضين والطبيب ومدير المستشفى؟
- طبعاً كلهم أصحابك، أكيد اتفقت معهم يحكون نفس الحكاية، كنت أتساءل لماذا كنت مشغولاً ليلة أمس، يبدو أنك كنت تفكر كيف ستتخلص من الورطة، لكن ربك كشفك.
- خلصنا من وساوسك وسوف أعيدها غداً إلى المستشفى.

ما إن جاء الصباح حتى حملها وذهب بها إلى المستشفى، ودخل مباشرة إلى غرفة المدير:

- دخيلك أريد إعادة الطفلة إلى المستشفى، وشرح له الحكاية
- يا فريد الأمر ليس بتلك السهولة.
- لكنها ليست ابنتي.
- صحيح وأنا أشهد بذلك لكنها الآن سجلت باسمك فلا أستطيع أن أستلمها منك، هذه مسؤولية قانونية.
- ما العمل إذن؟
- اذهب إلى الشؤون الاجتماعية واطرح لهم ذلك.
- لن أذهب إلا معك لأنك ورطتني.

وافق المدير وذهب معه إلى الشؤون الاجتماعية

- سمع مدير الشؤون الاجتماعية الحكاية، فhez رأسه قائلاً
- تصلح أن تكون فلماً.
- متى تغيرون شهادة ميلادها وتحذفوا اسمي منها؟
- من قال لك أن باستطاعتنا أن نحذف اسمك من شهادة الميلاد، هذه جريمة، شهادات الميلاد متى صدرت لا تحذف.
- لن تحذف؟ دخيلكم، احك شيئاً يا مديراً (مدير المستشفى).
- اهدأ قليلاً لنعرف ما هو المطلوب.
- قال له مدير الشؤون الاجتماعية:



- اسمع يا فريد ليس أمامك إلا حل واحد
- ما هو؟
- أن تذهب للمحكمة وتطالب بتصحيح الوضع
- رفع يديه ووضعها على رأسه وبدأ بشد شعره:
- أنا حمار ابن حمار لماذا أشفقت على الطفلة؟ ثم رفع يديه إلى السماء وقال: يا رب أهذا جزاء من يعمل خيرا؟
- هدى من روعك يا فريد. قال له مدير المستشفى، سأساعدك في مصاريف المحامي لا تقلق
- ومتى نستطيع التوجه إلى المحكمة؟
- منذ الغد لكن....
- لكن ماذا؟
- الجلسة قد تبدأ بعد أشهر وربما بعد سنة.
- بعد سنة؟ وأين ستكون البنت خلال تلك الفترة؟
- طبعا عندك لأنك الآن المسؤول عنها، يعني لومات أنت المسؤول.
- بدأ يرقص مثل المجانين
- أنا حمار ابن حمار، أنا حمار ابن حمار
- ضحك المديران، وقال له مدير الشؤون الاجتماعية
- يارجل أكمل معروفك، ليس أعظم عند الله من رجل يرضى اليتيم وهذه طفلة يتيمة قد أرسلها الله لك لتقودك إلى الجنة.
- الجنة؟ بسيطة أنا متنازل عنها ما رأيك أن تأخذها لتربيتها حتى موعد المحكمة؟
- لا يمكن فأنت رسميا أبوها حتى هذه اللحظة.
- وكيف تقتنع زوجتي أنها ليست ابنتي، كيف سأقنعها الان بعد عودتي بها؟

حمل البنت وقال في نفسه، ورطت نفسي وعلي أن أتحمل المشكلة، هذا درس لن أنساه أبدا.

وصل البيت دق الباب فتحت زوجته فرأته عائدا بالبنت، صرخت به قائلة: عد بها من حيث جئت بها.

إما أن تعيدها لأمها أوتطلقني الآن.

فكر بالموضوع، وقال في نفسه، لوطلقتها فمن يربي الأولاد؟ وكيف سأذهب للعمل؟ حمل البنت مرة أخرى وخرج بها لا يعرف ماذا يعمل، ظل يسير في الشوارع لا يدري إلى أين، أنهكه التعب، جلس على الرصيف، بدأت البنت تبكي لم يكن معه أي

- فجأة مر به صديق يعرفه، صافحه وسأله
- لماذا تدور في الشوارع مع ابنتك؟ هل زوجتك مريضة؟
  - لا ليس كذلك. وشرح له الحكاية.
  - نظر إليه صديقه بعد أن رق لحاله وسأله:
  - هل جربت أن تعطيه لدار الأطفال اللقطاء؟
  - حاولت فقالوا أنت أبوها ولم يصدقوني.

هز صديقه رأيه وقال له:

- لماذا قلت لهم إنك أبوها؟
- وماذا أقول لهم؟
- قل لهم إنك وجدتتها في الشارع.
- وهل سيصدقوني؟
- ليس المهم أن يصدقوك، المهم أن تتخلص منها، ما لك ولها، هل تريد أن تربي أولاد حرام يا رجل؟

اقتنع فريد بكلام صديقه ورجاه أن يسمح له بالمبيت ليلة واحدة عنده حتى صبيحة اليوم التالي، فذهب على الفور إلى إحدى الجمعيات التي ترعى الأطفال اللقطاء، وقال لهم أنه وجد هذه الطفلة أمام بيته.

رحبوا به وسجلوا كافة المعلومات الضرورية، وفجأة رفعوا سماعة الهاتف واتصلوا بالشرطة، سألهم:

- لماذا الشرطة؟
- إجراءات ضرورية، فقد تكون الطفلة ضائعة من أهلها ويبحثون عنها، أو قد تكون مسروقة من أهلها، أو أي شيء آخر، يجب أن تقرر الشرطة أن لا أهل لها حتى نرعاها.
- حسنا أنا أستأذنكم
- لا تترك المؤسسة حتى تأتي الشرطة وتعطيهم إفاذتك أين وجدتتها.
- لا لا أحب أن أرى الشرطة، أنا مجرد فاعل خير، سأذهب.
- لا تذهب ستكون مسؤولاً عن ذلك.

جلس مع الطفلة في غرفة الانتظار، طلب من إحدى الممرضات أن تحملها حتى يذهب إلى الحمام للحاجة، وبعد أن وصل غرفة الحمام، نظر خلفه فلم ير أحدا يراقبه، فهرب مسرعا.

غادر الجمعية بسرعة، وبينما كان يسير في الشارع ينتظر سيارة أجرة تقله من المكان لينهي مأساة ظلت عالقة في رقبته، فإذا بسيارة الشرطة تصل، فخرجت إحدى الموظفات وأشارت بيدها إلى فريد، فلحقه أفراد الشرطة بالسيارة، وعندما عرف أنهم يطاردونه هرب إلى شارع مجاور فلحقوا به سيرا على الأقدام، وهددوه إن لم يتوقف، لكنه ظل يركض من زقاق إلى زقاق، وأخيرا قرر أن ينتقل للرصيف الآخر حتى يهرب منهم فقفز إلى وسط الشارع بسرعة ليقطعه لكن سيارة مسرعة من الاتجاه الآخر ضربته فأردته يتخبط تحت عجلات السيارة.

توقف السير فجأة على هذا المنظر الرهيب، وفورا طلب أفراد الشرطة سيارة الإسعاف، التي حضرت بعد فترة قصيرة، فحصوه، فإذا به قد فارق الحياة. بحثوا عن اسمه في جيب سترته فلم يجدوا سوى 3 دنانير وستين قرشا.

في صبيحة اليوم التالي كانت صورته في صحف الصباح، تطلب من أهله أن يتصلوا بالمستشفى للتعرف عليه.

## رأيت نفسي عاريا !!

أيار ، مايو 2005

كان حماما رائعا شعرت بعده أنني أصبحت شابا من جديد، حلقت ذقني ولبست أجمل ما عندي ولم أنس أن أُرش نفسي بما لدي من الروائح، فأنا ذاهب لحفلة زفاف وهكذا تريدني زوجتي.

نظرت لنفسي في المرآة لعلني أرى شكلا جديدا لي فلم يعجبني شكلي، ولم أر ما يميزني عن الآخرين.

دققت النظر، عدلت من تسريحة شعري، غيرت القميص ونظرت مرة أخرى فلم أر شيئا مميزا، كل ما رأيته كان شكلا كشكل أي رجل عادي. دققت النظر في المرآة، ناديت زوجتي سألتها عن رأيها فقالت أنت رائع وقبلتني لكن رغم ذلك لم أقنع.

- ما الذي كنت أبحث عنه إذن؟ ما الذي يقلقني هذا اليوم؟

- أبحث عن نفسي، عن ذاتي، عن أصالتي، أريد أن أرى في المرآة صورتي الحقيقية التي لا يشبهني بها أحد؟

- هل هذا وقته؟ أنت على وشك مغادرة البيت لحفل الزفاف.

- حسنا سأنجز المهمة بسرعة.

خلعت ملابسني ونظرت فضحكت، كل ما لفت انتباهي كرشني المترهل فأثرت أن ألبس ملابسني من جديد. قررت أن أفكر في الموضوع لاحقا وحسنا فعلت.

عدت لمذكراتي وكتبي ودفاتري القديمة، فلم أر ما أبحث عنه.

هل أكتب مذكراتي لأتعرف على ذاتي؟  
زرت أمي وسألتها كيف ولدتني ومن كان حاضرا وووو... لم أترك سؤالاً إلا سألته، لكن بعد أن هدأت لِنفسي فكرت هل فعلاً حققت ذاتي؟ هل أستطيع الآن أن أرى نفسي، أرى ذاتي؟

لماذا لا أقتنع بما أراه في المرأة؟  
يبدو أن شكلي لم يعجبني، فهل علي أن أغيره؟ إذا خفت وزني أكون أكثر تعبيراً عن نفسي؟

حدثت صديقي عما بداخلي فقال لي: عليك البحث عن نفسك وذاتك في عيون الآخرين، فأنت عندما تلبس أجمل ما عندك ليس لترضي نفسك ولكن لترضي الآخرين الذين ينظرون إليك وأنت عندما تنظر لامرأة جميلة وتعجب بجمالها لا تعلم كم من المساحيق وضعت على وجهها قبل أن تراها بشكلها الأنيق.

فكرت بما قاله صديقي فلم أقتنع، فأنا أرغب أن أرى نفسي لا أن يراني الناس، أرغب أن أرى ذاتي أرى عيوبي قبل حسناتي، لا لكي أضع المساحيق عليها وأخفيها ولكن لكي أعرفها أولاً وأحاول أن أمتع غيرها من البروز.

كنت أسير يوماً على شاطئ النهر شارد الذهن فالتقيت برجل عجوز يبدو أن الموت نسيه فشكله أشبه بهيكل عظمي ولحيته طويلة، يهز رأسه كل ثانية كالآلة، أوقفته وسألته:

- مرحبا يا شيخ.
- مرحبا يا بني قالها وهو يطم فيها.
- أظنك تتفرج على نفسك في مياه النهر؟

- لا يا بني لا أحد يستطيع أن يرى نفسه إلا عندما يخرج منها؟
- كيف يا عمي الشيخ؟؟
- تعال واجلس هنا يبدو أنك تبحث عن وجع لرأسك.
- أتعقد ذلك؟
- قبل أن أحيبك دعني أسألك أليدك سيجارة؟
- أتدخن وأنت بهذا السن؟
- لم لا يا بني ماذا بقي من عمري لأخاف عليه؟؟
- ربما تكون صادقا، على كل حال أنا لا أدخن لذا أعتذر.
- لا تقلق يا ولدي خيرها بغيرها، بالنسبة لسؤالك يا ولدي حتى ترى نفسك أوذاتك عليك الخروج منها، وانظر إلى نفسك مجردا من كل شيء، من كل ملابس، من كل مساحيق، من دون ألقاب، من دون مراتب، من دون جاه أومال، لن ترى نفسك هكذا بالمرأة ولكن ستراها بوعيك الداخلي، في حال إلهام شاعري أو فلسفي، كأنك في غيبوبة قصيرة أوفي قيلولة.

لترى نفسك عليك النزول من السيارة لتسير مع الناس في الزحام وعلى أرصفة الطرق والشوارع.

هناك يمكنك أن تكتشف نفسك وذاتك. هكذا نكتشف أنفسنا.

- هل فصلت لي أكثر؟
- نكتشفها في دمعة طفل يسير خلف أمه التي تحمل أخاه الأصغر سنا بينما هو يبكي وراءها.
- كيف؟
- نكتشفها حين نحول دمعة الطفل إلى بسملة.

نكتشف أنفسنا عندما نتلقف ضريرا قبل أن يقع على الأرض بعد أن اصطدم بحجر أمامه لم ينتبه له، فنحميه من الارتطام بالأرض.

أنا اكتشفت نفسي عندما كنت أجلس مع أبنائي أعب معهم كأنني طفل صغير لم يتجاوز العاشرة بعد.

يا بني لا أحب أن أتجرد من ملابسي لأرى نفسي عاريا أمام المرأة لكنني أحب أن أتجرد من ملابسي الذاتية لأرى نفسي على حقيقتها، لكن هل تعلم أن الزمن لم يبق لي ما أراه، فقد فقدت أولادي، وأصدقائي ولم أعد قادرا على فعل شيء، ولم يعد هناك ما يستحق أن أراه سوى ذكرياتي الجميلة عن ذاتي، إن بقي لي شيء أستطيع أن أتذكره.

- هل يمكن للرجل أن يعري ذاته أمام الآخرين؟
- هز رأيه، أن تعري نفسك حقا أمام الآخرين أصعب ألف مرة من أن تعري جسمك. ألم تسمع بشواطئ العراة؟؟ موجودة الآن بكثرة ويتسابق الناس لزيارتها، لكن لا يستطيع أن يعري الإنسان ذاته إلا في حالتين أن يعريه الخالق يوم القيامة، أو أن يكون من الشجاعة لدرجة تؤهله أن يتعري أمام ذاته، فالتعري أمام الذات يحتاج لقوة إرادة أقوى من الفولاذ، أليدك هذه الإرادة؟؟
- سأجرب، دعني أجرب وأنت بجانبني، هل لك أن تلوذ بالصمت؟؟

استلقيت وأنا على جانب النهر، أغمضت عيني وأنا بجانبه، كان نسيم النهر يلفح جسمي استسلمت لوعيي الداخلي تجردت من كل شيء، تركت عقلي يبحث عن كل الأوساخ العالقة في جسمي، تخيلت نفسي أحاكم نفسي، وفكرت بما قاله الشيخ الجليل، خلعت ملابسي كلها قطعة قطعة، أصبحت عاريا من كل شيء ولم أكن لوحدي وإنما كان حولي كل الناس، كلهم يتفرجون ويسخرون، لم يكونوا ينظرون لعورتني السفلى ولكنهم كانوا ينظرون للأعلى لوجهي كأن به شيئا يثير الاشمئزاز،

يا له من شيخ أراد أن يقول لي:  
فكلك عورات وللناس ألسن !



# عصام لا يشبه عيزرا

قصة واقعية تغيرت فيها الأسماء الحقيقية وبعض التفاصيل الصغيرة

أيلول (سبتمبر) 2005

حمل عيزرا الميكرفون بيد، ومكبر الصوت باليد الأخرى وهو فوق مدرعة من مدرعات الجيش الإسرائيلي التي دخلت غربي قناة السويس، وبدأ ينادي السكان المصريين وأفراد الجيش المتمركزين هناك بتسليم أنفسهم بعد أن يرموا سلاحهم ويرفعوا أيديهم.

- ايها المصريون..

سلموا أنفسكم، ارموا سلاحكم، كل من يطلق الرصاص علينا سوف يقتل، ارفعوا أيديكم، جيش الدفاع الإسرائيلي أيها المصريون.....  
سلموا تسلموا

كانت الدبابات الإسرائيلية تحاصر المناطق السكنية وتطلق النار العشوائي على السكان، فخرجوا من بيوتهم رافعين العلم الأبيض.

استغرب أحد سكان المنطقة لهجة هذا الجندي اليهودي العربية وقال في نفسه:

- لعله من اليهود المهاجرين من الدول العربية. يبدو أن لهجته شامية أو قريية منها، وربما واحد من الدروز العرب الذين يخدمون في الجيش الإسرائيلي.

لحظات كان الأسرى مربوطي الأيدي للخلف وموزعين على شكل مجموعات، فجأة اقتربت المدرعة التي فيها عيزرا توقفت نزل عيزرا يوجه تحذيرات للسكان المصريين الأسرى.

- اسمعوا يا كلاب.

عليكم الالتزام بالأوامر، كل من يتحرك أو يحاول الهرب، سنقتله مفهوم!

ثم بدء يشتمهم حتى ضحك الضابط الإسرائيلي المسئول عنه وهز رأسه.  
دقق أحد المصريين فى صدر عيزرا عندما اقترب منه فشاهد نجمة داوود معلقة بسلسال ذهبي على صدره، فتمتم في سره.  
- هذا اليهودي الحقير يجيد العربية أحسن منا. آه لوأتحكم بك لأشرب من دمك.

انتهت حرب 1973 بوقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل ثم بين سوريا وإسرائيل. كانت الصحف الإسرائيلية تنشر بين اليوم والآخر صور مئات المصريين والسوريين، ونشرت فيما نشرته صورة الجندي عيزرا وهويطالب المصريين بالاستسلام غربي قناة السويس وتسليم أنفسهم لجيش الدفاع الإسرائيلي.  
لاحظ توفيق المواطن الفلسطيني، ابن البلدة القديمة في القدس وهو عائد من عمله في أحد المصانع الإسرائيلية غربي المدينة صورة الجندي عيزرا فى صحيفة إسرائيلية كانت بيد مواطن يهودى يقرأها وهو جالس بجانبه في الباص، سأل توفيق الجالس بجانبه عن اسم الصحيفة واشترى نسخة منها وهوفي طريقه إلى البيت، كان توفيق مشغولا يفكر هل هو؟ هل يمكن فعلا أن يكون هو؟

وصل توفيق البيت حمل الصحيفة وبدأ يدقق فى وجه عيزرا.  
- أنه يشبهه كأنه هو. فعلا يخلق الله من الشبه أربعين؟  
ولماذا لا يكون هو؟

لقد انقطعت أخباره منذ 3 سنوات، أبلغتنا الشرطة أنه لم يغادر المطار، ولا الجسر، ولا الميناء البحري، فأين عساه يكون لكن كيف؟

كيف أصبح جنديا يهوديا؟ لا أصدق.  
- لماذا لا أصدق؟ ألا يمكن أن يكون اليهود قد مسحوا ما في دماغه من معلومات وأقنعوه أنه يهودي؟ ألا يمكن أنه تعرض لحادث أو اعتداء أفقده ذاكرته؟

- لماذا لا تقول يا توفيق إنه هو الذي تطوع فى الجيش الإسرائيلي بسبب ما حصل له.. هل يمكن أن يفكر هكذا..؟  
مستحيل عصام أن يفكر هكذا أكلما حصل مع الإنسان مصيبة ينحرف بدلا من مواجهتها بصبر.

- أي صبر وأي كلام فارغ ما تعرض له عصام فاق كل احتمال.

ما تعرض له جريمة بشعة بحق الإنسانية ما تعرض له كلنا نتحمل مسئوليته، لقد سكتنا، لم نحدد موقفاً، لم نعاقب المجرم، كنا أمام نارين لم يكن من السهل علينا إرضاء الطرفين أعترف أننا تخاذلنا، لم نملك الشجاعة الكافية لقول كلمة الحق بصراحة نحن جزء من الجريمة.

- ليس هذا المهم الآن، المهم هل هذا هو؟ لاحظت زوجة توفيق انشغال زوجها فاقتربت منه تتفرج على الجريدة.

- ما هذا جريدة عبرية؟!.

- أهذا ما ينقصنا؟ نظرت إلى الصورة فسألها.

- هل يشبه هذا الجندي أحدا تعرفينه؟

- أنا أعوذ بالله، هذا يهودي ولا يشبه إلا اليهود مثله.

- دققي النظر ألا يشبه عصام أخي.

- لا لا يشبهه، فهذا يحمل نجمة داود على صدره.

فشر ولا يشبه عصام. تشابه الوجه غير متطابق عندما تنظر إلى الصورة فكر بعصام الفلسطيني وليس بعصام الشكل فقط ستري ألف فارق بينهما.

- ماذا أسمع فلسفة وتحليلاً نفسياً؟.

- لا يا حبيبي هذا رأيي، قم وتناول طعام العشاء.

بعد حرب عام 1967 واحتلال إسرائيل لما تبقى من فلسطين، لم يستطع عصام خلال شهور طويلة إيجاد فرصة عمل، فسأت أوضاعه الاقتصادية، فقرر السفر إلى الكويت حيث وجد له صديقا هناك فرصة العمر، العمل بشركة محترمة وراتب جيد، فسافر إلى الكويت خلال أيام وظل يعمل هناك لمدة عامين دون انقطاع قرر بعدها زيارة زوجته وأهله خلال إجازته السنوية.

حمل حقيبة ملابسه وبعض الهدايا وبعد أيام كان في باب العامود بعد أن أوصله سائق التاكسي من جسر الملك حسين - المعبر الحدودي بين إسرائيل والأردن.

لم يخبر عصام أحدا بعودته، أراد أن تكون زيارته مفاجئة لأهله.

نزل من التاكسي، وطلب من أحد العتالين حمل الحقيبة إلى البيت. سار عصام والعتال خلفه يتأمل باب العامود.

- يا الله لم يتغير كثيرا اللهم إلا المدخل، هذا الباب كنت أدخله كل يوم وأخرج منه، ها أنا أعود إليه.

- كم وحشني هذا الباب؟

ظل عصام يتأمل الناس والشوارع والأزقة حتى وصل البيت. كانت بيوت البلدة القديمة من الطراز القديم وهي تشبه البيوت الشامية القديمة، حيث يكون البيت واسعاً ويتكون من عدة غرف واسعة أحياناً متلاصقة وأحياناً متباعدة تجمع بينهما ساحة كبيرة غالباً للجلوس في أيام الصيف. كان يسكن في هذا البيت والد عصام ووالدته وبقية أفراد الأسرة. كل ولد متزوج له غرفة ومطبخ. قرع عصام الباب فتح له بعض الأولاد ولما رأوه صاحوا هيه عمي عصام حضر.

طلب منهم السكوت وعدم إزعاج الجيران. سألهم أين جدتهم وجدهم، قالوا بأن جدتهم ذهبت للسوق لتشتري بعض الخضار وأن جدهم في الداخل، وزع عليهم بعض النقود ليشتروا بها بعض الحلويات وقال لهم لا تخبروا أحداً أنني حضرت أريد مفاجأة جدتكم. شكروه على الفلوس وهزوا رؤوسهم وانصرفوا إلى البقالة القريبة، ثم دفع إلى العتال أجرته وأخذ الحقيبة منه.

اقترب عصام من باب غرفته يريد مفاجأة زوجته مستغرباً أنها لم تكن في الساحة الداخلية كعادتها، بدأ يهيه نفسه للقائها، رتب شعره بيديه، أصلح ثيابه ثم اقترب من الباب خلسة، فجأة سمع همساً داخل الغرفة، اقترب أكثر وبدأ يتصنت ماذا عساها تقول بدأ يسمع تأوهات رجل في حالة هياج جنسي لم يصدق أذنيه، هل غيروا الغرف في غيابي؟ - هل يمكن أن تكون هذه غرفة أمي؟ لكن الأولاد قالوا لي لا أحد في البيت سوى أبي. دعني أذهب إلى غرفته. ذهب عصام لغرفة أبيه، طرق الباب فلم يجب أحد، فتح الباب فلم ير أحداً.

ازدادت شكوكه ذهب إلى غرفته، وطرق الباب بقوة انقطع الصوت من الداخل، وحتى لا يكون قد أخطأ العنوان فقد صاح: أنا عصام، هل يوجد أحد هنا، فجأة فتح الباب، كانت زوجته تبكي:

- الحقني، الله يخليك.

دخل عصام كالمجنون هجم على الرجل العارى في غرفته وبعد أن وضع يديه على رقبتة يريد أن يخنقه لاحظ أنه يعرفه، من...؟

- أنت، أنت يا خسارة، تفوه عليك.

أبي مع زوجتي؟

- حملتك أمانة فختتها؟

يا سافل، يا منحط، يجب أن تنال جزاءك، بدأ يضرب به فسمعه إخوته الذين سمعوا بخبر وصوله من الأولاد وما إن دخلوا البيت حتى توجهوا إلى الغرفة التي يخرج منها الصراخ فلم يصدقوا أن عصام يضرب أباه، فرقوا بينهما وبدأوا يسألون ماذا حصل؟.

- هل هذا هو استقبال يا عصام، تضرب أباك؟

- أهدأوا ماذا جرى؟ لماذا أنت هنا يا والدي عريان؟

هل تجرأت وجردت أباك من ثيابه؟

- يا كلاب ألم تفهموا بعد؟.

ماذا يعني وجود أبيكم في غرفتي بغيابي مع زوجتي عريان ألم تفهموا وحدكم.

خلال نقاشهم وصياحهم كانت رحاب زوجة عصام قد لبست ملابسها وهربت إلى بيت أهلها.

- لا أصدق أبي يعملها، ماذا جرى؟ هل صحيح ما يقوله عصام يا أبي؟.

صاح الأب.

-بتضربني علشان وحدة شرموطة؟

- شرموطة يا كلب يا حيوان، أتسمعون؟ ماذا تقولون؟

- طلقها قال له أحد الإخوة، لا نستطيع أن نفعل شيئا سوى مقاطعة أبنينا، لا نستطيع قتله، الجرح بالكف.

- زوجتك هي المسؤولة أكيد كانت تغري أباك والشيطان لعب في رأسه. قالها أحد الإخوة.

- هذا هو الصحيح، الشيطان هو السبب.. قال الأب ثم بدأ يلبس ملابسها.

هز عصام رأسه وقال لهم:

- أهذا الحل؟ طلاقها؟

- وهل ثمة حل آخر؟ سأل أحد الإخوة.

- نعم هناك، قال عصام.

- وما هو، ما الحل الذي يرضيك؟.

- ستستمعون به قريبا، ثم خرج من الغرفة وغادر البيت وسط توسلات إخوته أن يبقى ليروه فهم مشتاقون له.

جلس توفيق كعادته في أحد المقاهي في البلدة القديمة يشرب الشاي ويدخن الشيشة (النارجيلة)، كان شارد الذهن، تتصارع في رأسه الأفكار، لا يدري من أين يبدأ أو أين ينتهي، كل ما كان يقلقه في تلك اللحظة كثرة مشاركة ابنه في المسيرات الوطنية، كان يخاف أن يصيب ابنه مكروه، فهولا زال صغير السن، والحرب تريد رجالاً. وأكثر ما كان يقلقه اعتقال ابن الجيران، أسعد ابن أبي عبد الله فهو صديق ابنه الحميم. لابد سيأتوا قريباً لاعتقال ابنه فماذا سيفعل؟

وبينما هو غارق في تفكيره في باب المقهى لا يلتفت لما حوله حتى تسمرت عيناه على النصف الأسفل لجندي يهودي بسلاحه الرشاش يقف أمامه مباشرة، دقق النظر جيداً ثم بدأ يرفع عينيه على الجندي، من الأسفل إلى الأعلى، فرك عينيه ونظر مرة أخرى من؟

- أهوانت؟ عيزرا أم عصام؟ أراد أن يعانقه لكنه تمالك نفسه قليلاً فكيف يعانق جندياً يهودياً أمام الناس.

- نعم عيزرا. عيزرا يا توفيق، لابد أنك شاهدت الصحف العبرية.

- نعم لكنني لم أصدق، زوجتي قالت هذا لا يشبه عصاماً.

- لم لا، لأنني أصبحت يهودياً وكفرت عن ذنوبي أنا اليوم عيزرا بن شمعون.

- أصرت حقاً يهودياً؟

- نعم تعمدت يهودياً أمام رجل دين يهودي في كنيس رسمي وقد منحوني اسماً جديداً وصرت من شعب الله المختار.

- وأهلك وشعبك؟

- عن أي شعب تتحدث؟ اليهود هم شعبي وأهلي.

- ونحن؟

- أنتم الذين اخترتم ذلك.

- عصام ما حصل ليس مبرراً لما تقوم به.

- أبوك ارتكب جريمة، أنت ترتكب جرائم بحق شعبك وأمتك، أنت..

- دعك من هذا الكلام الفارغ لا تتهرب من المسؤولية.

- مسؤولية ماذا؟

- جريمة أبيك؟

- وهل أنا المسئول عنها؟

- كلكم، وقفتم تتفرجون، قلت لي طلقها، تريدون معاقبتها هي ولم تقولوا شيئاً عن أبيكم.

- ماذا كان علينا أن نفعل؟.
- تقتلوه.
- أنت تعرف أن الإنسان لا يستطيع قتل أبيه. إنه أبونا، نعم مجرم لكنه أبونا.
- لن نتفق يا توفيق.
- أيهون عليك العشرة؟.
- ألم تهن عليكم؟ ألم أترك زوجتي أمانة في أعناقكم؟ فماذا فعلتم؟.. كلاب كلكم شاركتكم بالخيانة، كلكم اتفقتم أوروبما غض كل منكم عينيه عما يراه أويحس به.
- لا زال أمامك فرصة للعودة.
- من قال لك إني أفكر بالعودة لكم؟. لا شيء يقلقني سوى زوجتي شوشانا وابني دافيد وابنتي راحيل.
- أتزوجت من يهودية؟.
- ومالك تقولها بقرف؟ نعم أنا يهودي وتزوجت من يهودية وأولادى سيكونوا يهوداً.
- ليتك ما عدت يا عصام.
- هل كنت تحب أن أظل مختفياً عنكم؟
- كنت أعتقد أنك ستسأل عن أمك.
- هل طلقها أبوكم؟.
- لا لم يطلقها.
- كيف ترضي أمي أن تظل في ذمة رجل خان الأمانة واغتصب زوجة ابنه؟ أليست شريكة فى الجريمة؟
- هلي سنصبح أعداء يا عصام؟.
- لا أعرف كل ما أعرفه أن الرب سيحرق أباك بالنار.
- ماذا لو أرسلوك يوماً لاعتقال أحد منا؟
- سأكون سعيداً بذلك.
- ماذا لوالتقيننا بحرب؟.
- أطرق رأسه قليلاً ثم قال:
- سأقوم بما يمليه علي واجبي في حينه....
- ودع عيزرا توفيق ثم انصرف.
- جلس توفيق، يكمل شرب الشاي ويسحب الدخان من الشيشة، اقترب منه أحد رواد المقهى ليسأله ماذا يريد الجندي منك؟.
- كان يناقشني بالحرب والسلام.
- هل تصدق بأنه يشبه أخاك عصام.
- كلا فلا شبه بينهما لم ألاحظ ذلك.

غادر توفيق المقهى وذهب إلى بيته القريب وعندما وصل قال  
لزوجته.  
- هل تذكرين يوم تجادلنا حول صورة الجندي عيزرا، لقد دققت  
النظر مرة أخرى، كنتِ صادقة فقد توصلت إلى نفس النتيجة  
عصام لا يشبه عيزرا.



## معك جنيه بتسوى اتنين

أيلول - سبتمبر 2005

كان كريما لأبعد الحدود، لم يترك مناسبة لعمل الخير إلا وشارك فيها دون ضجيج أو محاولة للفت انتباه الناس، كان مثل جابر عثرات الكرام يعمل في الظلام ويكره أن يمن على أحد. رغم ذلك لم يسلم من كلام الناس وتعليقاتهم وثرثراتهم حتى وهو يقدم المساعدة لهم، كانوا يقولون:

- يتبرع حتى يكتب عنه الصحفيون.

- بل يتبرع حتى ينتخبه الناس لمجلس الشعب.

- إنه يتبرع ليكفر عن سيئاته الكثيرة.

- بصراحة هورجل أهبل، وإلا لم يبذر فلوسه على الناس.

- بل يتبرع ليدخل الجنة، فكل جنيه يتبرع به يأخذ بدلا منه عشرة في الجنة.

- يا عالم لماذا هذه الاستغابة للرجل فهو يتبرع حبا في عمل الخير.

لم يأبه الحاج حنفي بكلام الناس فكل ما كان يهمه رضى ضميره لينام مرتاح البال، وهولم يكن مليونيرا كما يقولون لكنه تاجر متوسط الحال، مستورة والحمد لله كما كان يقول دائما والبسمة لا تفارق شفتيه.

الحاج حنفي كان محبوبا في مدينته ليس فقط لتبرعاته ولكن لأمانته ونزاهته وتواضعه الذي كان يحسده عليه منافسوه وأقرباؤه.

كانت الشركات تحب التعامل معه ويرسلون له البضاعة مع تأجيل الدفع لعدة أشهر وكان هو بالمقابل يلتزم بكل وعوده للشركات ولا يتأخر في دفع مستحقاته في مواعدها.

عجلة الزمن تدور، ولا يدوم على حال لها شان، تجارة الحاج حنفي تبدأ بالتدهور، فالعالم الجديد، والتكنولوجيا الجديدة تغلبت عليه.

محلات كبيرة تم فتحها قريبة منه تشتري بضائعها من المصانع الأجنبية فلم يعد يقوى على المنافسة الجديدة. يتوقف الحاج حنفي عن التبرعات، ويقع في ورطة، حيث يعجز عن سداد ديونه المتراكمة فتصادر الشركات بقرار من المحكمة البضائع من المحل وتبيع محله وبيته في المزاد العلني فيضطر للعيش في شقة صغيرة بالايجار ويبدأ باستخدام الأوتوبيس (الباص) بعد أن باع سيارته لكثرة مصاريفها وغلاء البنزين.

لم يصدق الناس ماذا جرى وكانوا يتهامسون خلفه:

- معقول الحاج حنفي أفلس؟
- لا أصدق، أعتقد أنه يحاول التهرب من دفع ديونه للشركات.
- الحاج حنفي يموه على الناس بأنه طفران، حتى لا يطالبه أحد بشيء.
- يدعي الإفلاس حتى يتوقف عن التبرعات.
- الحاج حنفي يستغيبنا، أخفى فلوسه عن الضرائب حتى يتركوه وشأنه.
- يا ناس يا بشر حرام عليكم، ارحموا عزيز قوم ذل.

لم يتركه أحد وشأنه، فكل من عرفه لذعه بتعليقاته ونكاته حتى أصبح حديث الشارع، وهذي زوجته ملت حياة الفقر التي لم تتعود عليها فطلبت منه الطلاق وتركته وحيدا.

ها هو الحاج حنفي يجلس في المقهى الشعبي في أحد شوارع المدينة يشرب الشاي ويدخن الشيشة ويستمتع أحيانا لتعليقات من هنا ومن هناك يتلقفها ببسمة مصطنعة، كمن يستسلم لقدر لم يرسمه لنفسه.

وحده أبوكرتونه الذي ظل صادقا مع الحاج حنفي، فهذا الرجل الذي كان يرمي عليه الناس تعليقاتهم وزبالتهم لأنه (على البركة) كما يصفونه، لم يكن يجد من يعطف عليه ويشترى له الملابس إلا الحاج حنفي فبقي مخلصا له حتى وهو في محنته.

كلما سحب الحاج حنفي نفسا من شيشته في مقهى النصر  
يغمض عينيه وهو يخرج الدخان من رثيه كأنه يستعيد مع الزفير  
كل شريط ذكرياته القديمة.

أين الأصدقاء والأصحاب؟ أين الذين كانوا دائما يوهموني أنهم  
أصدقائي؟ سبحان الله لم يبق على ما هو عليه إلا الله.  
الناس تتغير، نعم كنت أعرف ذلك لكني لم أكن أعرف أنهم  
يتغيرون بهذه السرعة، هل كان كل من عرفت يصادقني فقط  
لفلوسي؟ لمصلحة شخصية معي؟ ملعونة الفلوس.

زادت التعليقات على الحاج حنفي فلم يعد يطيق سماعها. في  
أحد المرات لم يتحمل تعليقات أحد الزبائن فحدثت مشكلة بين  
الطرفين هجم فيها الشاب على الحاج حنفي محاولا الاعتداء  
عليه إلا أن يدا قوية منعه وشدته إلى الخلف، نظر الحاج حنفي  
فإذا به أبوكرتونه الذي كان قوي البنية وسليط اللسان، ربت الحاج  
حنفي على ظهر أبي كرتونة وقال له:

- فيك الخير يا أبا كرتونة.
- خيرك سابق يا حاج حنفي.

بكى الحاج حنفي وجلس في مقعده يسحب الشيشة من جديد  
ويتساءل أين هم الناس الذين يذكرون الخير كما يذكره أبوكرتونة.  
أه يا زمن! كلهم خانوك يا حاج إلا أبوكرتونة.

جلس أبوكرتونة بجانب الحاج حنفي وهو ينظر إليه غير مصدق أن  
يكون هذا الرجل الذي كان يحترمه الجميع هونفس الرجل الذي  
يسخر منه من هب ودب.

أسند أبوكرتونة ظهره إلى الحائط بجانب الحاج حنفي الذي طلب  
له كأسا من الشاي، وفجأة بدأ يتمتم ويغني بصوت حزين:

- عين يا ليل، ليل يا عين
- أهل الوفا راحوفين
- معك جنيه بتسوى اتنين
- إوعى توقع تحت الدين

# وانتصر الحب على السكين

نيسان 2006

حمل حقيبته وتوجه إلى المطار في رحلة قصيرة لمدة أسبوع. بعد أن قدم أوراقه اللازمة والتذكرة دخل إلى قاعة المطار ومن هناك إلى الطائرة، وضع حقيبته في المكان المحدد للحقائب، خلع جاكيتته وجلس يطالع كتابا يحمله بانتظار إقلاع الطائرة.

المضيفة تعلن موعد إقلاع الطائرة وتطالب الجميع بربط الأحزمة وإغلاق هواتفهم النقالة وجميع الأجهزة الكهربائية. بدأت الطائرة بعد لحظات بالتحرك، لم يمض سوى عدة دقائق حتى كانت في الجو.

شعر بالراحة بعد أن أقلعت بسلام فهو عادة يخاف ساعة الإقلاع أكثر مما يخاف ساعة الهبوط، حمد الله على ذلك وعاد لكتابه من جديد، كان يحمل كتابا عبارة عن مجموعة قصصية لأمل اسماعيل، [[كاتبة فلسطينية مقيمة في الإمارات]] بعنوان "لأنها لا تموت".

بعد قراءة القصة الثانية بدأ ريان الطائرة يطلب من الركاب ربط الأحزمة من جديد استعداداً لمطبات هوائية قوية.

وضع الكتاب جانبا، ما عاد يشعر برغبة في القراءة، فهو يكره المطبات الهوائية، بل هو يخاف منها، لأنها ببساطة تضعه بين الحياة والموت، وهل هناك أكثر رهبة من أن تكون أقرب للموت من الحياة ولا تملك ولو خيطا واحدا من النجاة؟

ألقى برأسه على الكرسي، وأغلق عينيه، وذهب يستعيد شريط الأيام القريبة الماضية.

فجأة بدأت الطائرة بالاهتزاز، فتح عينيه ليرى كل من حوله منهمكين بقراءة الصحف أو المجلات، كأن شيئا لا يعنيههم، فيما هوازادت دقات قلبه. تساءل وهو يدقق النظر بعجوزين يجلسان

ليست المرة الأولى التي يسافر فيها، لكنه يخاف كعادته في كل مرة؟ لا يدري إن كان يخاف الموت أم يخاف اهتزاز الطائرة. مع أنه يدرك أن الموت بيد الخالق، لكن رغم ذلك يمتلكه الخوف كلما اهتزت الطائرة.

بدأ يعرض على شفتيه، تذكر أنه لم يخبر زوجته ماذا تفعل ببعض الأمور لوحصل له مكروه.

- ليتني أخبرتها!

أخرج من جيبه ورقة وقلم وبدأ يكتب وصيته لزوجته ووضعها في محفظته، ضحك من نفسه وقال:

- كم أنا غبي، وهل ستسلم الورقة لوحصل بالطائرة مكروه؟

لكنه أجاب نفسه.

- لن أخسر شيئاً من ذلك من يدري ربما تبقى الورقة.

ازداد اهتزاز الطائرة، قائد الطائرة يطلب من المضيفات والمضيفين الجلوس وربط الأحزمة، حالة من الخوف الشديد تسيطر عليه، تهتز الطائرة عدة اهتزازات وتهبط إلى الأسفل بسبب المطب الهوائي، يشعر كأنه مات أو كاد، يبدأ بترتيل آيات من القرآن الكريم

- اللهم إنك عفوتحب العفوفاعف عني، اللهم اغفر لي وارحمني وانقذني وأعدني لعائليتي سالما. يكرر دعاءه عشرات المرات وهو يستعيد شريط حياته كلها.

- آخ إن حصل شيء لي سيشمت بي بعض الأقارب وخصوصاً عمي أبو سلمان الذي ملأ الحقد قلبه وأساء لي أكثر مما أساء لي أعدائي، نسي كل ما قدمته له، نسي كم كنت أحبه للأسف، أغرته أمواله وأعمته عن الحقيقة.

بل سيشمت بي كل العائلة، من يدري، سيشمت بي من كنت يوماً أعدهم أصدقائي، فكانوا كالعقارب ينهشون بي. لم أنتقم منهم بعد، لم أرد لهم الصاع صاعين، سأموت مهزوماً أمامهم. هزموني بحقدهم وكرههم وتأميرهم. الآن سأموت دون أن أشفي غليلي منهم.

اهتزت الطائرة هزات عنيفة، بدأ الوجود يسيطر على الجميع، زوج وزوجته تعانقا يودعان بعضهما قبل أن يفوت الأوان. أمعن النظر في العجوزين الجالسين أمامه، فلم يشاهد أي تغيير في وضعهما، يتصرفان كأن شيئا لم يكن. ربما لأنهما أشرفا على الموت فلا يهمهما إن ماتا على الأرض أوفي الجو.

عاد يدعو الله أن يغفر له، فجأة بدأ يقارن بين دعواته بأن يغفر الله له وحرصه على الانتقام من أقربائه ومن كان يعدهم أصدقاءه:

- كيف أطلب من الله أن يغفر لي ذنوبي - وما أكثرها - وأرفض أن أصفح عن أحد منهم.
- كيف أصفح عنهم ولا زال الحقد والتآمر يملأ قلوبهم؟
- ألم تتحول مثلهم حاقدا عليهم؟
- لكنهم خدعوني، أساءوا لي دون وجه حق.
- رغم كل ذلك فقد ساهم الحقد والكره الذي زرعه فيك مسيطرا على تصرفاتك. عليك أن تنزعه من نفسك؟
- كيف؟ هل أتنازل عن حقي؟
- لا ليس كذلك لكن قاوم مشاعر الكراهية في نفسك، قاومها بالحب، نعم بالحب، وهل كان المسيح مخطئا عندما دعا إلى محاربة الشر بالمحبة؟ ألا ترى أنك بمقاومتهم بالحب إنما تنتصر على نوازع الشر في نفسك. جرب ذلك، حاول ولومرة، قرر في نفسك أن تصفح عن كل الذين أساءوا لك بالحب، وقل لي بعد ذلك ماذا تشعر. عندما تنزع عناصر الشر من داخلك فأنت تنتصر لنفسك وليس لهم، عندما تعلن مواجهة الموت بالحب سترى الحياة بعيون أكثر صفاء وقلب أكثر نقاء.
- هذا هو الفارق الذي يميز الخالق عنا، قدرته على الصفح والمغفرة.
- هل علي أن أحب من أساءوا لي؟
- هل تعلم أنك عندما تحبهم، وتصفح عنهم، وتسامحهم، وتشطب زلاتهم، وتواجه حقدهم وكرههم وإساءتهم بالحب فإنك تنتصر عليهم. تهزمهم بالضربة القاضية.

الطائرة تزداد اهتزازا، لم يعد يهمه أي شيء، أغلق عينيه وقرر التجاوب مع ذلك النداء الداخلي، نعم سأصفح عن كل

هدأت الطائرة، الريان يعلن بعد دقائق انتهاء المطبات  
الهوائية ويسمح للركاب بفك الأحزمة.  
تنفس الصعداء، الحمد لله على كل شيء.

نظر إلى العجوزين مرة أخرى فلم ير أي أثر من الخوف أو  
الفرحة بادية على وجوههم.  
- يا إلهي، هل فعلا لا يهتمهما الموت أم أنهما أكثر شجاعة  
مني؟ أم أن الحب يملأ قلوبهما بحيث يتسع لكل شيء؟؟

وصلت الطائرة، هبطت بسلام، خرج للمدرج يبحث عن  
ينتظر قدمه.  
كانت زوجته وبعض الأقارب، أحدهم كان ممن... لا لا لن  
أكره أحداً، سأسلم على الجميع وأعانقهم.

## ليش، ليش يا جارة؟

أيلول 2005

هل يمكن لنا أن نمحو ذنوبنا وخطايانا بذنوب أخرى نرتكبها؟  
أيجوز لنا أن نخفي جرائمنا الصغيرة بجرائم أكبر وأكثر بشاعة؟

كلا لم أعد أصدق امرأة بعد اليوم. كلهن خائنات، يمتهن الكذب، ويستعذبن خيانة الرجال!!  
قلت لها بوضوح دون أي غموض:

- يا لطيفة الجريمة لا تمحى بجريمة أخرى.  
منذ ذلك الحديث أنهيت غير أسفٍ علاقتي بها، لم أعد أستوعب أية علاقة معها. كنت أعتقد أن الحب يمكن أن يتحول إلى صداقة، وأن الحبيب يمكن في ظروف معينة أن يصبح صديقاً، لكن أية صداقة تلك التي تريدني أن أحافظ عليها، في الوقت الذي لم يعد باستطاعتي النظر إليها؟  
- لم لا تغفر لي ما حصل؟ سألتني في لقائنا الأخير.

قلت لها:  
- ماذا أغفر لك؟ الجريمة الأولى أم الثانية أم الثالثة؟  
- ألم يبق في قلبك بعض الحب؟ بقية من حبنا القديم؟  
- كلا لم يبق شيء، يمكنك الاعتماد عليه يا لطيفة. قتلته بيدك.. هل تذكرين أم تحتاجين من يذكرك بذلك؟  
- أعرف أنني أخطأت بحقك يا سعيد، كل ما أطمع به الآن المغفرة، وأن أحتفظ على الأقل بمعرفتك ولو كانت معرفة هامشية.

- ولماذا؟ ألسنت طبيبة نسائية لها اسمها ومركزها الاجتماعي، وتعمل في مستشفى المدينة الرئيسي؟ ماذا تريد مني وأنا مجرد موظف عادي لا يحمل حتى شهادة جامعية؟

شعرت أنني أستهزأ بها فقالت:  
- سعيد، هل تود أن تقطع علاقتك بي نهائياً؟  
- لم يعد ثمة علاقة بيننا حتى أقطعها. علاقتنا القديمة انتهت منذ زمان، نخرها السوس، فلم يترك لها أي أثر، أتعرفين لماذا؟ لإنها كانت علاقة هشة فلم تصمد أمام السوس ولم تقاوم.

أنسيت عندما قلت لي، من الأفضل لنا أن نفترق فلماذا تريد العودة؟.



- لم أكن أريد خداعك؟.
- فماذا تريد الآن؟.
- صداقة بريئة، أريد فقط الاحتفاظ بعلاقتنا، أنسيت أننا جيران، هل نسيت عندما كنت تغني لي من شباك بيتكم:

ليش ليش يا جارة؟  
ما تردين الزيارة؟

كم كانت جميلة منك تلك الكلمات بيدولي أنك لم تحفظ أغنية غيرها فهذه الأغنية الوحيدة التي كنت دائماً ترددها. هززت رأسي وأخذت نفساً عميقاً محاولاً أن أستعيد ذكريات حاولت مراراً أن أمحوها من ذاكرتي. قلت لها بسخرية:

- لن يشفع الماضي الجميل لك. براءتك التي عرفتك بها لم تشفع لك يا لطيفة. تذكرين كل ذلك وفي لحظة معينة حرقت كل شيء، تعرفين كم أحببتك وكم ضحيت لأجلك، كنت سأخطبك من أبيك لكنك قلت لي:

- انتظر، حتى أعود من الجامعة. بذلت كل جهدي مع معارفي وأصدقائي وحصلت لك علي منحة دراسية في ألمانيا الديمقراطية لدراسة الطب. كنت خلال دراستك الجامعية أرسل لك الرسائل لأطمئن عليك، وكنت في البداية تردين عليها لكنك بعد ذلك توقفت عن الكتابة، وكنت أعتقد للأسف أن دراستك شغلتك عن رسائلي فتقبلت الأمر ولم أقرأ لغبائي ما بين السطور.

انتظرتك سبع سنوات، وعندما رجعت كنتُ فرحاً بعودتك عودة الدكتورة لطيفة ولكن سرعان ما ذهبت أحلامي أدراج الرياح عندما كان استقبالك لي فاتراً. الحقيقة المرة التي فوجئت بها، أنك لا ترغبين باستمرار علاقتنا، كنت تقولين لي:

- سعيد، أخشى أن يفتضح أمرنا فلا تزورني في المستشفى.

هكذا بعد طول انتظار؟ وعندما قلتُ لك سوف أتحدث مع أبيك بالموضوع كنت تجيبين:

- لا لا يمكن لذلك أن يتم.

- ماذا؟ صرخت بك، هل تمزحين؟ فأجبت ببرودة أعصاب:

- هي الحقيقة التي ستعرفها لاحقاً.

أعترف لك كانت تلك صدمة كبرى لا أعرف كيف تحملتها كنت حينها كالمجنون، وسألتك:  
- يا لطيفة، هل أحببت شخصا آخر؟  
قلت بهدوء:  
- لا لم أحب أحداً غيرك.  
فسألتك لماذا إذن؟  
لم تجيبي، تهربت من الإجابة، ليس حرصا علي بل لأنك لم تجدي ما تجيبين به، لم تسعفك ذاكرتك.  
فقدت الشجاعة كي تصارحيني بما حصل. قلت لي ستعرف في الوقت المناسب.

وافترقنا وليت الأمر وقف عند ذلك لكن ما حصل كان أبشع، ارتكبت الجريمة الكبرى بحقي، بحق نفسك، بحق لطيفة الطيبة التي عرفتھا منذ كانت في السنة الثالثة وأنا في الثامنة، كنت جارتنا التي أحببتها، كنت كل شيء في حياتي، لطالما لعبنا معا صغارا وتراسلنا كبارا. وعندما كبرت وتعرفت أكثر على أبيك الذي كان يعرفه كل أهل القرية أصبحت أحترمه وأقدره فقد عاملني كابنه فأنا جاره وابن صديقه، وبعد أن تخرجت من المدرسة نشأت بيننا صداقة قوية فقد كان أبوك رحمه الله رجلا لا بد من صداقته لما للحديث معه من متعة قتلتني يا لطيفة.

أطلقت الرصاصة الأخيرة، رصاصة الرحمة، عندما تزوجت فجأة ودون احتفال رسمي كعادة كل العرسان من داوود.

هكذا انتهى كل شيء بيننا بزواجك من داوود. وأنت تعرفين من داوود هذا. رجل سيء الخلق، مشبوه، من تجار المخدرات، خريج السادس الابتدائي، سجن عدة مرات بتهم السطو المسلح والسرقة وكل قريتنا تعرف أنه من زعران البلد.

الدكتورة لطيفة تتزوج داود ضاربة عرض الحائط بكل الناس الذين نصحوها ألا تقدم على تلك الخطوة المجنونة. لم يكن ذلك صفقة فقط. كان ذلك أسوأ أنواع الخيانة..

لا أدري ربما هذه الجملة لم تعد صالحة لتناسب حجم الجريمة التي ارتكبتها.

في البداية كنت أعتقد أنك أحببت طالبا درس معك في ألمانيا أو أن الدكتورة لطيفة لم يعد يليق بها عريس مثلي لم يعد في مستواها الأكاديمي، ولو حصل وتزوجت مثل ذلك العريس

- هذه حبيبتي القديمة.  
لكنك للأسف لم تتركي لي شيئاً أحتفظ به يذكركني بك لم تتركي ولوخيطة رفيعة لا يرى في العين المجردة لكن يمكن للقلب أن يراه ويحس به.  
ماذا تريدني مني أن أقول..؟  
هذه المرأة، زوجة الأزعر والحرامي والمشبوه كانت حبيبتي؟  
كيف سأقول إن المرأة التي كنت أغني لها "ليش..ليش يا جارة" كانت أنت التي سمع بك القاضي والداني؟ وكتبت عنك الصحف ما تقشعر له الأبدان. أنسيت أن أباك- رحمه الله- مات بسببك؟ بسبب الألام التي خلفتها له عندما تزوجت من داوود رغما عنه ووضعيته أمام الأمر الواقع.

نظرت إليها فإذا بها تبكي.. قالت بصوت مرتفع  
- كفى كفى، لا أستحق كل ذلك.

- وهل تستحقين نيشاناً؟  
- لقد قلت لك قبل ذلك إنه أثناء.... قاطعتها على الفور قائلاً:  
- أعرف كل شيء، ولا أريد سماع المزيد من التبريرات السخيفة. في الجامعة وفي حفلة طلابية، شربت الوسكي وسكرت... ارتكبت جريمة ومعصية، ربما كنت سأغفر لك ذلك لكنك جئت لتصلحي خطأك بجريمة أكبر.  
قالت:

- عرضت على هذا الأزعر الزواج لمدة 3 شهور ثم يطلقني مقابل بعض المال وقد وافق، لكنه عاد بعد الزواج ورفض وكانت مشاكلي معه. اغتصبني أكثر من مرة وضربني.  
هزرت رأسي ساخراً وسألتها:

- لماذا تتزوجين من شخص لعدة شهور؟  
لتداري بها جريمته الأولى؟

تريدين أن تخدعي زوجك الثاني بأنك امرأة مطلقة؟ لماذا لا تصارحينه؟ لماذا لم تصارحيني؟

- كنت أخاف أن أجرح حيك لي الذي اعتبره مقدساً وأعيش على ذكراه. كنت أفضل أن تلعنني ألف مرة ولا أعترف لك بما حصل. كنت غير قادرة على تحمل نظرات عيونك لي.

- فهل كان أسهل عليك الزواج من داوود؟  
- تزوجت من داوود لأنك تعرف أهل بلدنا فأني شخص سأتزوجه ويعرف الحقيقة، سيطلقني وسأكون مضغة في أفواه الجميع.  
قلت لها هازئاً:

- وأنت طبعاً ضحية هذا المجتمع. أنت القديسة التي ظلمها المجتمع فأين جهودك لتغييره؟ هل سيتغير بالزواج من داوود؟.

- لكنه طلقني الآن.
- يا سلام وهل أجهل ذلك؟ ألسنت من ساعدك علي الطلاق؟
- أنسيت عندما جئت تكيين وتطلبين مساعدتك بعد أن شرحت لي كل قصتك في ألمانيا؟
- لماذا ساعدتني؟ سألتني لطيفة.
- ليس جبا بك، لا، بل كي لا أسمح لهذا الرجل الأزعر أن يلطخ سمعة أبيك بالوحل، إكراماً لأبيك الراحل الذي توفي بعد حريمته أو زواجك بأسبوع.
- أحمد الله أنه مات ولم يقرأ ما تناقلته الصحف عندما ضربك زوجك السابق على رأسك وحبسته الشرطة، هل تذكرين ذلك التقرير الذي كتبه ذلك الصحفي التافه والذي قال فيه زوجك السابق داوود إنه طلب منك ممارسة... فرفضت فضربك.. لقد قال أكثر من ذلك وللأسف نشرته الصحافة فأصبح الوطن كله يعرف أنك زوجة ذلك الوغد.
- أحمد الله أنني تطلقت منه. قالت لطيفة والآسى على وجهها ثم سألتني:
- فهل أعتبر ذلك لقاءنا الأخير؟
- أرجو أن يكون ذلك.
- أفلا أطمح ولو يسؤالك عني بين الحين الآخر؟ في العيد مثلاً؟
- صمت.... ولم أجب
- لم لا ترد؟
- فقط عندما تموتين لأقوم بالواجب.
- لتشمت بي؟
- لا لكن احتراماً لذكري أبيك الطيب الذي قد يسامحك فهو أب ومشاعر الأبوة تختلف، أما أنا فلن أسامح.
- كررت علي السؤال وهي تتعد، فقلت لها:
- يا لطيفة الجريمة لا تمحى بجريمة أخرى.

## لن أظل خادمة لزوجة أبي

تشرين ثاني 2005

كرهت زوجة أبي، وكرهت معها أبي نفسه. فقد كان يصدقها دائما فيما تقول، ويعنفني أمامها، وأحيانا كان يضربني بقسوة، ليرضيها، فقد كانت دائمة التشكي مني، وتلفق لي التهم. لم يكفها أنني صرت خادمة عندها، بل تريدني أن أكون عبدة مطيعة في كل شيء، هذه المرأة التي حرّضت أبي علي حتى لم يعد يطيقني هي سبب مصيبتني كلها، وكم تمنيت أن ينتقم الله منها يوما ما، ويخفيها عن الوجود.

ولماذا ألومها، وأبي لم يكلف نفسه أن يسمعني ولومرة واحدة. فقد كانت عنده الإله المطاع، وإن حاول أن يتساهل معي كانت تقلب حياته جحيما، فيصب كل غضبه علي، حتى أنه كان أحيانا يشترك معها في ضربي فلا أجد من أهرب إليه ليحميني، فأستسلم إلى قدرتي المحتوم، حتى أصبحت فتاة مستسلمة لليأس والقهر والكبت الداخلي.

اختلف أبي مع أمي فطلقها، أمي رمّنتني إليه، لتنتقم منه، وعمري لم يتجاوز ثمانية شهور، ووالدي تركني لأعمامي لأنه انشغل بزوجته الجديدة سبب مصائبها كلها.

عشت مشردة محرومة من كل حنان، حياة ملؤها القسوة، حتى اعتقدت في صغري أن الله لا يحبني. كيف يحبني وقد خلقني لأم وأب أهملاني وتخلوا عني قبل أن أتم السنة؟ ما الذي أذنبته حتى أتحمل كل ذلك؟

لماذا خلقتني يارب في دنيا الذئاب المفترسة، ما هذه الحياة التي يتركني فيها والدي ويتمنى لي الموت ليتخلص مني، وأمّي تهرب فلا أعرف لها مكانا.

عشت طفولتي في بيت جدي وجدتي من أبي الذي لم يعد يسأل عني، أما أعمامي فقد كانوا يزوروني أحيانا للاطمئنان علي ابنتهم كما كانوا يقولون لأنني عرضهم، ولو كنت ابنا لما

كنت أسمعهم يقولون فيما بينهم، لماذا نربّيها وأبوها حي يرزق؟! نحن غير مستعدين لتربيتها وأبوها لا يبالي إلا بنفسه وبزوجته الجديدة.

بعد ضغط شديد من اخوته اضطر أبي أن يأخذني لأستقر معه في السعودية، حيث كان يعمل هناك، وعشت معه ومع زوجته التي لم أر يوما سعيدا معها. كانت تضربني بعنف شديد، ولم يكن باستطاعتي أن أعبر عن معاناتي، ولوحتى بالبكاء.

في كل يوم كان الغضب يزداد علي، فلم أستطع أن أكون صداقات في المدرسة، لم أشعر يوما أنني طالبة، فضرب زوجة أبي وتشغيلها لي في البيت، جعلني أكره المدرسة. ولأنني لم أكن أحل واجباتي المدرسية، فقد كنت أتعرض لضرب المعلمات اللواتي لم يكن يعلمن ما أتعرض له في البيت.

يا الله، ضرب في البيت وضرب في المدرسة، زوجة أبي تتلذ بضربي أمام أبي، وتتهمني أنني مهملّة، وأني أبول في الفراش.

بقيت حياتي تسير على هذا المنوال حتى بلغت الثامنة عشر.. وبعدها عدت إلى بلدي الأردن لأعيش مرة أخرى في منزل جدي، وتخلصت من شتى أنواع القهر، والإهانة، والضرب من زوجة أبي. لكن هذه الفرحة لم تستمر طويلا فسرعان ما توفي الجدان وعاد الوالد مع زوجته من السعودية، مما اضطرني للعودة مرة أخرى للعيش في كنف زوجة الأب التي استمرت في ضربي، وإهانتني أمام الجميع حتى حضرت الشرطة في أحد المرات بناء لبلاغ من أحد المارين في الطريق الذي أزعجة صوت الفتاة القادم من وراء الجدران، تستغيث طالبة المساعدة وكأنها امرأة عربية في زمن المعتصم تستصرخ ضمائر الناس الذين عجزوا عن تقديم المساعدة لأحد.

لم تفعل الشرطة شيئاً سوى تسجيل محضر لأنني أجبرت على التنازل عن القضية خوفاً من أبي المجرم في حقي، الذي حرمني بالتعاون مع أمي حقوقي كطفلة، حقوق الحنان، واللعب، والتعلم بأمان، والعيش في أسرة سعيدة، والأهم من ذلك حرمني حق الاستمتاع بلفظ: أمي وأبي.

حتى حقي في أن أنام نوماً هادئاً فقدته... فقدت كل شيء، فهل لهذه الحياة أن تعوضني وأن تقدم لي شيئاً آخر لا يمكن أن أفقده؟

ليتته يتغير منحي حياتي... لكن هيهات، فقد أصبح التغيير حلماً لدي، لكن صبري لم يدم كثيراً فقد تعرفت على أسرة بحاجة إلى جليسة أطفال لأن الزوجين مشغولان في العمل.

يبلغ طفلهما من العمر تسعة أشهر حيث قمت بدور الأمومة مبكراً وأدبته جيداً، هذا الدور هو الإحساس الذي لم تمنحه لي أمي يوماً ولم تتقنه كأحد أهم أدوارها، فقامت برعاية الطفل حتى بلغ من العمر سنتين تقريباً، أي أنني عملت لديهم طوال فترة عام كامل بنهايته اضطررت لترك العمل لدى هذه العائلة بسبب مضايقة وتحرش والد الطفل بي جنسياً. هكذا هم الرجال لا يتركون أحداً من شرهم حتى في بيوتهم يريدون خيانة زوجاتهم.

حزنت لفراق الطفل الصغير لأنه منحني إحساساً جميلاً، الشعور بأنني ما زلت طفلة تلعب مع طفل آخر، بكيت كثيراً لفراقه ولفقدان عملي لأنه كان يعدني عن زوجة أبي القاسية المتسلطة، لعنة الله عليها، وعلى اليوم الذي تعرفت فيه عليها، فها أنا أعود إلى بيت والدي مجبرة، لأعرض للإهانة، والضرب من جديد، وليس لي من خيار آخر غير ذلك كمن يستجير من الرمضاء بالنار.

لقد كان أكثر ما يقلقني ويقتلني صمت أبي، واستسلامه وإهماله لي، فهو لم ينصفني يوماً، ولم يدفع أذى زوجته عني بل على العكس فقد كان يوافقها على معاملتي، هكذا بحجة التربية، والتنشئة السليمة التي تكون بالضرب.

يا لحظي التعيس... لماذا لا أعيش كأى فتاة؟؟ لماذا لا يتقبلني والدي ولا ينصفني أمام ظلم الحياة وظلم زوجته؟

بعد سنين القهر والحرمان وقفت أمامه أتذكر كل لحظة عشتها في طفولتي ولم تكن أيا منها طبيعية... وقفت أمامه وقلت له: لم أعد احتمل، أرجوك أن تخلصني من هذا السجن، دعني أعمل خادمة في بيوت الناس ولكن لا تبقيني خادمة لزوجتك. لم يصدق ما سمعه مني، لكنه في النهاية قبل بعرضي عليه، ليس حبا بي ولكن لأنني وعدته أن أعطيه نصف راتبي، ولكي يستريح مني ومن تدمري المستمر.

وبعد أيام من البحث المضني وجدت عملا في مؤسسة خيرية ورغم قلة الراتب وافقت على الفور وباشرت العمل في اليوم التالي وقد طلبت منهم المبيت في الجمعية بعد أن شرحت لهم وضعي فوافقوا على الفور، فرحت وحمدت الله على أنني لن أشاهد زوجة والدي التي تمثل بالنسبة لي إبليس نفسه. كما سرت زوجة أبي أيضا لانها تخلصت مني فقد كانت تكرهني بالرغم مما عملته بي.

فرحتي لم تستمر، فقد استغنت الجمعية عني لأن الميزانية لا تسمح لهم بموظفين جدد، مما اضطرني للعمل في أحد المحلات التجارية، وكنت قد وجدت سكنا عند إحدى السيدات الأرامل، وكنت أدفع لها ثلث راتبي المتدني الذي لا يتجاوز ما قيمته مائة وعشرون دولارا كان والدي يلطش نصفها دون أن يقول لي ولو كلمة شكر واحدة، أوحى يعطيك العافية.

وعندما زرته في المرة الأخيرة لتسليم نصف الراتب هجم علي هو وزوجته الش... انهال علي بالضرب وهي شددت شعري بقوة كمن يريد أن ينتقم مني شر انتقام سألتهما:

- لماذا تضربانني؟

فأجابا لانهما علما أنني تركت العمل في الجمعية ولم أبلغهما بمكان عملي الجديد. وهددني والدي إن خرجت من البيت فسوف يكسر رجلي.



والدي لا يريدني أن أعمل في محل تجاري، وفي نفس الوقت لا يريدني الخروج من البيت، ولا يريد أن يرفع ظلم زوجته عني، ولم يعطني يوما قرشا أصرفه على نفسي، اشتبهت الشوكالاته طفلة، وعندما كبرت تمنيت أن يقدم لي هدية بأية مناسبة كانت ليفرحني بها، كما كان يفعل مع زوجته حبيبة قلبه.

لم أعد أحتمل العيش في البيت، لا أريد أن أظل خادمة عند زوجة أبي التي أكرهها أكثر من كره آدم لإبليس، فلماذا أصبر على العيش في بيت السجن أهون منه؟

هل قررت أن أفعلها و....؟

- نعم هذا ما عزمت عليه، فلماذا لا أفعل ذلك؟ لم يدر بخلدي أين أذهب ولا أين سأبيت، ولا أين سأجد عملا، كل ما كان يهمني هو ترك البيت، والخروج منه حتى لو همت على وجهي مع الذئاب والكلاب.

بدأت أعد العدة للهرب، لم أترك أحدا يشك بشيء، فقد انتظرت حتى طلبت مني زوجة أبي أن أشتري لها بعض الحاجيات من المحل القريب منا، فذهبت ولم أعد.

- ماذا افعل، ولماذا هربت؟

- لا ادري

- إلى أين أذهب؟

- صمت مطبق، لم يدلني عقلي على مكان آمن.

- هل أعود إلى بيت أبي؟

- كلا حتى لو بعث نفسي للذئاب.

- لماذا لم يتركني أبي بحالي؟

طلبت منه أن يتركني أعيش كما أنا، لا أريد العودة إلى منزله، ولا أريد تكرار الماضي بما فيه من قهر وذل وحرمان واستعباد... أحتاج لأن أعيش مع بشر حقيقيين.. أحتاج أن أنسى الماضي وقسوته، أحتاج أن استعيد ثقتي بنفسي.. ولا أريد أن يستمر الماضي في مطاردتي.

فهل يتركني أبي بحالي؟ أم أنني لن أهنأ بالسعادة يوما وليس لي إلا الانتحار؟

كنت أسير كالهائمة في شوارع عمان البعيدة عن بيت أبي، فجأة استوقفني إعلان على أحد الجدران، تسمرت في مكاني، قرأته مرة ومرات، حفظت العنوان عن ظهر قلب، وتابعت سيرتي إلى العنوان المذكور في الإعلان.

عندما وصلت كان الباب مغلقا، اقتربت من الباب لأقرعه، لكنني تراجعته قليلا، فقد أصابني الخوف، هل صحيح سيساعدوني، أم سيسلموني لأبي؟ رفعت يدي لأقرع الباب وبدل أن تهوي يدي عليه، تراجعته عنه، قررت الانسحاب بهدوء.

فجأة فتح الباب، نظرت فإذا بها سيدة كانت على وشك أن تغادر المكان، سألتني وهي تبتسم، من أنت؟ لم أرد عليها فقد منعتني دموعي من الرد.

مدت يدها بلطف وأمسكت بيدي، سحبتني إلى الداخل كأنني ضيفة عندها، أجلسني على كرسي، وطلبت لي كأسا من الماء، ثم قالت: لا تبك يا ابنتي، فقد قرأت في عيونك كل شيء. سألتها:

- هل أستطيع النوم عندكم؟
- نعم، ردت علي، فهذا بيت لمن لا بيت لهم.
- ارتحت كثيرا، كأن سكينته أنزلت علي للتو، رفعت يدي إلى السماء، وقلتها لأول مرة منذ سنوات طويلة:
- أحمدك يا رب.

## من أجل دلوماء!!

تموز 2007

عندما انتقل عبد السلام إلى الحي الجديد في مدينة الخليل تعرف على جار له يدعى أحمد ويكنى ب (أبوالعبد). رجل تجاوز الستين من عمره، يقيم الصلاة في أوقاتها، ويصلي معظم الأيام الفجر جماعة في الحرم الإبراهيمي. وكثيرا ما كان أبوالعبد يدعوجه إلى الصلاة معه لكن عبد السلام كان يتهرب من ذلك بدبلوماسية نادرة في منطقة الخليل.

لم يكد يمر شهر آخر حتى تعرف عبد السلام على جار آخر في جيل جاره الأول يدعى ناصر ويكنى ب (أبوإبراهيم). أبوإبراهيم لم يكن مثل أبي العبد مواظبا على الصلاة، ولكنه كان رجلا سمحا، يحبه الناس، وكانت المفاجأة الكبرى أن أبا إبراهيم كان شقيق أبي العبد لكن القطيعة دبت بينهما ففرقتهما رغم أنهما يسكنان في حي واحد ولا يبعد الواحد عن الآخر سوى عدة أمتار.

تساءل عبد السلام عن أسباب القطيعة من أحد الجيران فعرف أنها قطيعة طويلة، أكثر من عشرين سنة!! شقيقان يسكنان في حي واحد تفصل بينهما جبال من الحقد والقطيعة أكثر من عشرين سنة. يا الله!! لم كل هذا الجفاء؟ كان عبد السلام يتساءل دائما لم كل هذا يا ترى؟ - ماذا بينهما من خلافات ومشاكل؟

مهما كان بينهما هل يستحق منهما ذلك كل هذا الجفاء؟ جفاء؟ إنها قطيعة تامة؟ إنها.....

- لا أعرف ماذا أسميها، ولا ماذا أصفها، أهى الأنانية، أم الحقد، أم أن المسألة فيها ما يستوجب أن يصغى إليه؟ جيل كامل والقطيعة بينهما، أولاد العم لا يعرفون بعضهم بعضا إلا من بعيد، حتى حق الجيرة لم تؤد. ألم يوصي الرسول بالجار حتى الجار السابع، فكيف وهو الجار الثاني؟؟

لم يهدأ بال عبد السلام حتى استطاع جمع وفد كبير من كبار رجال البلد (جاهة) وزار الشقيقين كل على انفراد من أجل إصلاح

في ديوان الحارة الكبير تجمع في اليوم التالي أكثر من مائة رجل بكوفياتهم وعباءاتهم التي يلبسونها في مثل تلك المناسبات. وبعد تقديم القهوة إلى الجميع وضع كل عضومن أعضاء الجاهة فنجان القهوة أمامه دون أن يشرب منه شيئاً كعادة الجاهات التي تصلح بين المتخاصمين، ثم وقف رئيس الجاهة (الوفد) السيد حمدان أحد كبار تجار الخليل، وبعد أن حمد الله على نعمه، أشار فيها إلى نجاح الجاهة في إعادة المياه إلى مجاريها بين الشقيقين أبي العبد وأبي إبراهيم، وذكر بدعوة الرسول الكريم محمد (ص) على التقارب والتسامح وصلوة الرحم، طلب من الأخوين أن يقفا ويتقدما ليتعانقا أمام الجميع، وإلا لن يشربوا القهوة.

تقدم الأخوان العجوزان والشعر الأبيض يغزورأسيهما، وقف كل منهما أمام الآخر وقفة عتاب، نظر أبوالعبد بوجه أخيه الذي لم يره منذ 22 سنة، ونظر الآخر إليه، كادت الدمعات أن تنهمر على خديهما لكن الكبرياء الزائف منعها. هجم كل منهما على الآخر، تعانقت الأكتاف، وصفق الجميع بهذه المناسبة، وطلب رئيس الجاهة من أفراد جاهته تناول القهوة بالمناسبة.

عاد كل منهما إلى مكانه، تحدث بعض الحاضرين مؤكداً أن العلاقات بين الأشقاء يجب أن تكون دائماً في القمة.... بعد لحظات الدموع انتقل الحضور يتناقشون في أمور عامة أخرى، حتى وقف عبد السلام متسائلاً، ما الذي أدى بالشقيقين إلى هذه القطيعة، لكن حمدان رئيس الوفد طلب منه أن يغير الموضوع حتى نطوي الصفحة القديمة، لكن أبوالعبد أصر أن يتحدث فاعتقد الحضور أنه سيتحدث عن أسرار هامة، فأنصت الجميع:

- في 22 من حزيران على ما أعتقد من عام 1985 طلبنا من دار أخي أبي إبراهيم دلوماء لأن الدلو عندنا سقط في البئر، لكننا فوجئنا أن زوجته ترفض أن تعيرنا إياه بدعوى أنهم بحاجة إليه في تلك الفترة.

- تنهد أبوإبراهيم قليلا ورد على أخيه قائلا:
- وهل نسيت يا أبوالعبد عندما طلبنا منكم في 21 أيار من نفس العام الطنجرة لأن ضيوفا قد حلوا علينا في ذلك اليوم؟ فماذا قالت زوجتك؟ رفضت للأسف وقالت الطنجرة مليئة بالأكل.
  - طيب هل نسيت أم أذكرك أنكم قبلها بشهرين في وسط شهر آذار طلبنا منكم شوية ملح للأكل لأن الملح قد خلص من عندنا فقالت زوجتك أنه لا يوجد عندكم ملح؟ هل يعقل أن تعز شوية ملح عن أخيك؟
  - وهل نسيت أم أذكرك عندما طلبنا منكم في العاشر من كانون ثاني يناير عام 1985 شوية كمون فقلتم إن الكمون خلص من عندكم.
  - وهل نسيت....

قاطعهم حمدان قائلا، ألهمه الأسباب كانت القطيعة بينكما كل هذه المدة؟ كنت أحسب أن وراء القطيعة شيئا أكبر من ذلك. ثم استدار إلى الشباب الجالسين بالقرب من الباب من أبناء الشقيقين وقال لهم، وجودنا هنا اليوم ليس لكي نغير عقلي أبيكم ولكن لنفتح الطريق أمامكم لتغيروا ما زرعه الآباء في عقولكم.

# هل صحيح يا عمي محمد؟؟؟

عادل سالم  
أغسطس 2005

أن تكون وحيدا لا يعني بالضرورة أن تجلس بعيدا عن الناس، منعزلا، لا تكلم أحدا، ولا يكلمك أحد. فالوحدة ليست بابتعادك عن الناس، أو عدم انخراطك في لقاءات كثيرة مع بعضهم. الوحدة الحقيقية أن ترى ثقافتك وطموحاتك وأمانيك وأفكارك.. الخ لا تتقاطع مع من حولك، ويعيشون معك. أن تتكلم بلغة غير لغتهم وتحلم غير ما يحلمون، وأن يكون تفكيرك غير تفكيرهم، وإذا جمعتمكم سماء واحدة وأرض واحدة فقد فرقت بينكم الأحلام والأهداف والمشاعر، حتى الموسيقى التي يقال إنها لا تعرف لغة ولا انتماء كثيرا ما تتعارض وتتنافر مع ذوقك رغم أنك تعيش في وسطهم.

من كان يؤمن أن الموسيقى لا لغة لها فقد أخطأ فها هي شعوب بأكملها تطرب لآلة موسيقية قد لا يطرب لها شعب آخر ويعتبرها نشازا.

الشعور بالوحدة شيء قاتل جدا، شيء ممل، فكيف إذا طالت الوحدة ولا تعرف متى ستنتهي؟؟ أأست حينها كمن يتعذب بالنار؟؟ أويعذب نفسه فيها؟

كثيرون منا اختاروا عزلتهم بأيديهم دون أن يدروا، فإذا بهم يكتشفون أنهم غير قادرين على الخروج منها.

أليست الغربة عن الوطن عزلة اختيارية؟؟ وأحيانا إجبارية؟ صحيح ثمة ملايين من البشر رضوا بواقعهم الجديد واعتبروها أوطانهم الجديدة حتى لو قالوا غير ذلك بأفواههم، وقليلون لم ينجحوا في التأقلم مع الواقع الجديد وظلوا يعيشون عزلتهم وكانى واحد منهم.

لم تنجح كل المغريات في أن تقتل الانتماء الحقيقي لثقافة وحضارة تعيش في داخلي رغما عني. لثقافة رغم انكساراتها لا زلت أرى نفسي فيها وأنمو على ذكرياتها الجميلة.

أستمع أحيانا لأم كلثوم فأعود للوراء خمسة وثلاثين سنة، لا أعرف لماذا كلما أستمع لها أحلق في الفضاء، لأنها من جيلي الذي بدأ يعد العدة للرحيل أم لأنني لا زلت أعيش في الماضي؟؟ بصراحة أقول لكم لم أعد أشعر بذلك الطرب الذي تعودت عليه عندما كنت أسمعها أنا وأبناء جيلي، فقد ذهب بريقها هنا في بلاد الغربة، هل لأن نانسي عجرم حلت محلها؟ أم لأن زمانها قد ولى، أم لأننا نحن نعيش في زمن لم يعد لنا؟!!

لطالما استمعت لها وأنا أجلس في سيارتي على شط بحيرة فكتوريا في ولاية منسوتا الشمالية في الولايات المتحدة، وهي تغرد شعر الراحل إبراهيم ناجي، وألحان الراحل رياض السنباطي:

يا فؤادي لا تسأل أين الهوى  
كان صرحا من خيال فهوى

رحم الله إبراهيم ناجي، هل حقا هوى صرحنا الكبير كما قال؟؟  
هل حقا تحطمت أحلامي؟؟  
أكانت كل أحلامي مجرد وهم وأمان لن تتحقق؟؟

اسقني واشرب على أطلاله  
واروعني طالما الدمع روى

ماذا أشرب على أطلاله؟ ومن هو الذي سيسقيني مادام الوطن الذي  
تعودت أن أشرب بيديه أصبح بعيدا لا أراه إلا في الصور؟؟  
لا لم يعد لصوت أم كلثوم ذلك البريق؟  
لقد غاب عن صوت المسجل والسي دي نبرة صوتها، ليس لأنها ماتت...  
هل هناك من يفهمني، ويقرأ ما بين السطور؟؟

أم كلثوم وأغانيتها وصوتها جزء من حضارة لا تعيش، ولا تنموالا في بيئتها،  
وعندما تسمعها بعيدا عن ذلك الوطن تصبح مثل قراءة تقرير في مجلة عن  
جزر بروناي وماليزيا ترى صورها لكنك لا ترى جمالها الحقيقي.

هناك في شوارع القاهرة، ولبنان، ودمشق، والقدس يمكنك أن تحس  
بصوتها، يمكنك أن تغني معها بصوت عال دون أن تخاف من أحد، أويسخر  
منك أحد، هناك وأنت تجلس في أحد المقاهي ترى الناس يطربون معك  
ويشاركونك فرحتك.

ها هو عمي محمد بعكازه القصير يقف فجأة أمام المقهى يطربه صوت  
الست القادم من آلة التسجيل في الداخل فيحرك رأسه طربا ويهز عكازه  
بينما الست تغني:

هل رأى الحب سكارى....

عمي محمد يتنهد قليلا ويرفع عكازه ويقول:

- ساق الله على أيام زمان.

- واحد شاي لعمي محمد، أصيح بأعلى صوتي للنادل ثم أدعوه  
للجلوس.

يجلس عمي محمد بجانبني يغلق عينيه كأنه يستعيد كل ذكرياته  
القديمة.

أم كلثوم تكمل القصيدة حتى تقول:

وضحكنا ضحك طفلين معا...

- الله، ما أعذب هذا الصوت. يتمتم عمي محمد، فقد كان واضحا أنه في أوج طربه، سألته:
- هل تعني لك هذه الكلمات شيئا؟
- هز رأسه وابتسم كأنه استغرب هذا السؤال، ثم بدأ شاردا الذهن وهي تقول:
- وانتبهنا بعدما زال الرحيق
- وأفقنا ليت أنا لا نفيق.

تركته في سرحانه وانشغلت في تدخين الشيشة. كنت طربا مثل عمي محمد حتى استفتت وهي تقول:

وإذا الدنيا كما نعرفها  
وإذا الأحباب كل في طريق!

همست في أذن عمي محمد:  
- لماذا الأحباب كل في طريق؟

لم يرد عمي محمد بقي سارحا كأنه يستعيد كل الماضي، يستعيد ذكريات سنوات طويلة في ثوان معدودة، يا لهذا العمر كيف تختزل السنين فيه إلى ثوان، كأنها حكاية صغيرة كان يحكيها لنا الأجداد.

ياحبيبي كل شيء بقضاء  
ما بأيدينا خلقنا تعساء

حينها هزرت عمي محمد وسألته، أصحيح يا عمي محمد؟  
هل صحيح أن سبب تعاستنا ليست من صنع أيدينا؟  
هل كان إبراهيم ناجي صادقا أم كانت له أحلامه الخاصة التي لا تتقاطع مع أحلامنا؟

- هل نحن الذين شئنا أم الحظ الذي شاء؟؟
- عمي محمد، عمي محمد، هزرته 3 مرات أخرى.
- مالك يا عادل ما الأمر؟
- هل أنت نائم؟
- لقد أيقظتني من أجمل حلم في حياتي.
- الله، هل كنت تحلم؟ لم يمر على وجودك هنا سوى ثلاث دقائق.
- 3 دقائق؟ هذه أجمل دقائق حياتي كلها.
- أردت أن أسألك يا عمي محمد.
- قل يا بني ماذا تريد؟
- هل صحيح أن كل شيء بقضاء؟
- وماذا ستفرق معك أصلا، ما ذهب لن يعود. والنتيجة واحدة.
- لم أرد....



- أتعرف لعب الطاولة؟ سألني عم محمد بعد أن عرف حيرتي
- ألا زلت تذكرها؟
- أغلبني إن استطعت
- وتتحداًني؟
- انتم جيل الشباب جيل ضعيف
- الله! لماذا الشتائم يا عمي محمد؟
- ستعرف عندما أغلبك.
- يا حسنين هات الطاولة واتنين شاي، ناديت النادل فقد قررت أن أغلب عمي محمد.

# اللص الوفي

تشرين ثاني 2006

أن تكون لصا فهذا يعني أنك غير مأمون الجانب، يبتعد عنك الناس ويهربون من لقاءهم معك، يتمنون لك الموت كل لحظة، يستغيبونك في كل حديث، ويحذرون أولادهم منك، يستنجدون بالشرطة منك سرا وعلانية، بعضهم يحاول الاعتداء عليك إن اقتربت من صومعته، أما إن تركته بحاله فلن يسأل عما تفعل. إن كنت لصا شرسا، ومن أصحاب السوابق، فإن معظمهم يظهرون لك محبة كاذبة، يصادقونك لكي يأمنوا شرك، ومستعدون تقديم رشوة مناسبة إن تركتهم بحالهم.

منذ الطفولة وجدني يقول لي لا تؤمن جانب اللصوص، لكنني في كل حفلة عرس كنت أدعى إليها كنت أشاهد عشرات اللصوص مدعويين رسميا، وعندما كنت أسأل أهل العريس لماذا دعوتهم فلانا؟ فقد كانوا يردون علي بجملتهم المشهورة:  
- إنه لم يسرق منا، والله غفور رحيم. لكنني صرت أعرف مع الأيام أن مصالح كثيرة تربط اللصوص مع بعض الناس.

قبل فترة سرقت سيارة صديق لي، فاتصل بالشرطة لكنها لم تستطع أن تفعل شيئا، فذهبت معه إلى صديق آخر على علاقة باللصوص وعرضنا عليه المشكلة، فقال لنا لا تقلقوا، ستعود السيارة غدا، وبالفعل فقد عادت بسرعة، وعندما سألتناه كيف فعل ذلك، ضحك وقال لا تقلقوا، ولم يطلب منا شيئا، كأنه أراد أن يخدمنا لصداقته لنا.

كان عبد السميع أحد اللصوص المعروفين في سنوات الستينات في القدس، كان اسمه وحده كافيا لزرع الرعب في قلوب الناس، لجبروته وشراسته.

تكونت أفراد عصابته من 3 أشخاص إضافة له باعتباره زعيم العصابة، اتفقوا جميعا على مبدأ واحد وهو أن يجتمعوا كل أسبوع أو أسبوعين للسطوعلى أحد البيوت أو المحلات لسرقتها.

لم يتركوا دارا من شرهم، حتى أن بعض أصحاب البيوت كان إن سمعهم يختبئ في غرفة، ويتركهم يسرقون الغرفة الأخرى خوفا من الاعتداء عليه إن تعرض لهم.

في المرة الأخيرة قرروا منح سكان البلدة القديمة استراحة من شرورهم، وتوقفوا عن السرقة لفترة طويلة، قرر خلالها عبد السميع السفر إلى عمان لأمر عائلية.

لم يمض على عبد السميع أسبوع واحد في عمان حتى اتصل به أحد أفراد عصابته من القدس طالبا منه الحضور لأمر هام، لم يسأله عن السبب فقد كان يوصيهم بنفسه أن لا يتحدث أحد بالهاتف عن أي شيء، كان يكفي أن تقول لأحدهم تعال في الموعد الفلاني فيأتي بسرعة البرق، هكذا علمهم فكيف يمكنه الآن أن يخلف كلامه؟

ترك عبد السميع أقاربه في عمان وتوجه إلى القدس مباشرة، وعندما وصل وجد أمامه خطة سطو جاهزة.

- ما الخبر؟
- اسمع قبل يومين تم بيع عمارة في الشيخ جراح لصاحبها أبو حسان الحلاق بعشرين ألف دينار، وقد قبض المبلغ نقدا وهو يحتفظ به في بيته في باب السلسلة.
- هل أنتم متأكدون؟
- طبعا وكل شيء معد وجاهز، سنلتقي الليلة الساعة الواحدة صباحا لتتوجه إلى البيت المذكور، لا تنسوا جميعا.

كان عبد السميع يدرك أن (أبو حسان الحلاق) من قبضات البلد ولذلك لن تكون العملية سهلة، فطلب من جماعته أن يكونوا سريعى الحركة وأن لا يتعشوا تلك الليلة، وأوصاهم أكثر من مرة: - إن أحسستم بأن أهل البيت استيقظوا على حركتنا فاتركوا المكان واهربوا، فلا نريد أن نرتكب جريمة قتل.

الساعة الواحدة صباحا، انطلق اللصوص إلى البيت المقصود، بيوت البلدة القديمة تشبه في بنائها البيوت الشامية التي يمكن اقتحامها من السطوح بسهولة، وقد كان الناس في تلك الفترة ينامون مبكرا، فلا تلفزيون، ولا كمبيوتر، ولا ما يحزنون.

هذه ضربة العمر، كان كل واحد منهم يفكر ماذا سيفعل بعد نجاح العملية، قال أحدهم:  
- سوف أتوب وأذهب للحج ثم أفتح محلا لبيع الخضار، أما الثاني فكان أعزبا فقال:  
- سوف أتزوج ابنة عمي، يمكنني بعد العملية أن أتقدم لطلب يدها. أما الثالث فقال:  
- سأشتري سيارة نقل صغيرة لأعمل عليها وأستريح من السرقة.

وحده عبد السميع فلم يكن يحلم بشيء، لا يحلم بشراء بيت ولا بالزواج فهو متزوج من امرأتين، ولديه ستة أولاد والسابع في الطريق، كان كريما رغم أنه لص، كانوا يقولون عنه إنه كريم بمال غيره فهو لم يتعب بها، لكن أفراد عصابته كانوا بخلاء، ولا يحبون أن يصرفوا قرشا بدون سبب.

اقتربوا من البيت سألهم أين يقع البيت تماما، فقال له أحدهم:  
- بالقرب من فرن الحاج حربي.  
- ولكنكم قلتم في باب السلسلة؟  
- وما الفرق؟ مئة متر فقط.  
- أين بالضبط من فرن الحاج حربي؟  
- البيت الثالث على اليمين.

توقف عن السير وسألهم:  
- أليس ذلك قريبا من بيت الحاج سمور؟  
- هوجاره الحيط بالحيط.  
تسمر في مكانه فجأة وأزاح الكوفية التي يتلثم بها عن وجهه وقال لهم بغضب؟  
- يا كلاب أتريدون أن نسطوعلى جار الحاج سمور؟  
فوجئوا بجوابه، نظر كل منهم في الآخر متعجبا ثم قال أحدهم:  
- وما علاقة الحاج سمور بالموضوع؟ هل تخاف أن يصحوعلى الحادث؟

- لو كنت تفهم، ما سألتني هذا السؤال يا غبي؟
- إذن طول بالك وفهمنا يا معلمنا.
- أنسرق جار الحاج سمور صديقنا وحبينا؟ أتريد أن يقال عنا بأننا نسرق جار صاحبنا؟ أين النخوة يا بشر؟ والله لومعاه مليون دولار، لن أمد يدي عليها؟ يكفي أن يكون جار الحاج سمور لنعطيه الأمان.
- يا كلاب أحضرتُموني من عمان لأسرق دار جار صاحبي؟! مد يده وأمسك بتلابيب أحدهم وصرخ به موجهًا كلامه للجميع:
- صحيح أنا حرامي لكني لا أخون صاحبي أبدا فكل جيرانه لأجله في أمان.
- تفوه عليكم يا كلاب!! عودوا إلى بيوتكم، فليس لكم بعد اليوم أمان!!

# أخي رجب

حزيران 2005

كان عدنان وكنيته أبوأحمد يعمل عتالا (شيبالا) في مدينة الخليل - إحدى مدن فلسطين الجنوبية - يغادر البيت صباحا قبل الساعة ويعود له مساء بعد أن يحل الظلام.

لم يكن يعرف عطلة أسبوعية، أو رسمية، كل الأيام عنده سواء، فكثيرا ما كان يعمل أيام الأعياد كعيد الفطر، أو عيد الأضحى، لديه سبعة أبناء ومطالبهم لا تنقطع، ورغم أنه جاوز الخمسين سنة إلا أنه كان سعيدا في حياته حيث لا يعرف المرض طريقا إلى جسمه، قوي البنية يحب المشي حتى كان يمشي أحيانا عشرين كيلومترا في اليوم الواحد. كانت حياته فقرا مدقعا يعجب من يعرفها كيف لعدنان أن يتحمل كل ذلك، ويحتر من سر سعادته.

أكثر ما كان يشتهر به بشاشته، فقد كان صاحب نكتة، يحب أصدقائه من العتالين الحديث معه، ولأنه كان أثنى بحرف الراء، يلفظ الراء غينا، فقد أضاف لمعارفه مادة أخرى يتندرون بها عليه.

لعدنان أخ غني جدا من أصحاب الجاه والمال في الخليل، لا يقام عرس إلا ويدعى إليه، ولا يفتح بيت عزاء إلا وبشارك فيه، ويبحث عنه رجال الإصلاح ليأخذوه معهم، باختصار كان رجب رجل الخليل في تلك الفترة، وكان إذا دخل مجلسا يقف كل من في المجلس احتراما له، ولا يجلسون إلا إذا جلس. ومع أن أخاه عدنان أكبر منه سنا لكن لا أحد يقف له عند دخوله المجلس، بل لا يكثر له أحد رغم أنه طيب المعدن وحديثه ممتع لكن كما يقول جيو به فارغة لذلك لا يقف له أحد.

في أحد المرات وصل عدنان مجلس أحد الأعراس قبل أخيه رجب فرحب به أحد الحضور وحدد له أين يجلس في الحفل، لكن عندما وصل رجب وقف الجميع مرحبين به وتعالص الأصوات:

- تفضل تفضل يا أبا عماد ( كنية رجب ) والله لتجلسن مكاني
- لا لا والله لا يجلس إلا مكاني أنا، قالها ضيف آخر،

- يا جماعة الخير، أبوعماد مكانه محفوظ في صدر المجلس بجانب أبي العريس، صاح ثالث.
- قهوة يا محمد لأبي عماد، هتف خامس.
- نورت نورت والله بدونك العرس ليس له بهجة قالها سادس.
- حبيبي أبوعماد، صدقني وما لك علي يمين عندما أراك يزول كل هم في قلبي، قالها مبتسما أبوالعريس.

كان عدنان ينظر إلى الناس غير مصدق، لماذا كل هذا الترحيب؟  
والله لوحرر فلسطين ما لقي كل هذا الترحيب.

بعد أن جلس الجميع وجلس أخوه رجب، هب عدنان واقفا وقال  
لأخيه رجب: الله يمسي فلوسك بالخير يا أخي رجب!!

وقف رجب مبتسما لأخيه الكبير يحاول إنقاذ الموقف: مساء الخير  
يا أخي أبا أحمد، فلوسي فلوسك والعين ما بتعلى على الحاجب  
وانتقل بأسلوبه لحديث آخر.

كان رجب يعرف أن أخاه دائما ينغص عليه سهراته ولا يترك  
مناسبة إلا ويقلل من قيمته لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا  
فهو أخوه على الأقل أمام الناس. كان يقول أن عدنان يحسده لأن  
الله يرزقه فيما هو فقير: هذه سنة الله في خلقه، ماذا أفعل إن  
كان الله يريد أن يكون فقيرا؟

المشكلة أن أم عدنان كانت تلوم ابنها رجا وتقول له:

- هذا أخوك يا بني يجب عليك مساعدته.
- ولكنه إلحاحها عليه قرر فعلا أن يقدم لأخيه مساعدة لعلها  
تخفف من حقه عليه فيتوقف عن الإساءة له في المجالس،  
قرر في نفسه أن يحمل سيارته كل أسبوع لحوما وخضارا  
وفواكه وسكرا ورزا إلخ ويرسلها لأخيه عدنان وبالفعل توجه  
بسيارته محملة بالمواد الغذائية مساء أحد الأيام حيث صدفت  
أن كان عدنان في البيت.

بعد وصول رجب بيت أخيه عدنان نادى أولاد أخيه لينزلوا ويحملوا  
الأغراض وطلب منهم أن يسرعوا لأنه مشغول، وكالعادة تجمع  
الجيران ليشاهدوا اللحوم، والخضار تنقل لبيت عدنان فيما ربات

- تعال وانظر يا أبا خليل ماذا أحضر أبوعماد لأخيه أبي أحمد، هكذا الإخوة وإلا فلا، قالتها امرأة تتفرج من الشباك لزوجها في الداخل.
- هل ترين يا ابنتي، هكذا الأعمام وليس كعمك الذي يزورنا مرة كل سنة - قالتها جارة أخرى لابنتها.
- طبعاً لأن أبا عماد يحسن لأخيه وأخواته يرزقه الله
- .....

فجأة طل أبوأحمد من شرفة الطابق الثاني ونادى أخاه ليصعد لأمر هام، حاول رجب التملص لكنه اضطر أن يستجيب لرغبة أخيه لأنه هدده إن لم يصعد سيعيد كل ما جاء به.

في غرفة الجلوس أوالضيافة جلس عدنان مع أخيه رجب وحدهما بعد أن أغلق عدنان البيت، فقال عدنان:

- لماذا تغلب حالك يا أبا عماد؟
- لا تقل ذلك يا أخي خيرك سابق.
- ولكنها مستورة والحمد لله.
- يا أبا أحمد، أحرام على الأخ أن يساعد أخاه؟
- لا يا أخي رجب، قالها عدنان مستهزئاً، لكن الذي يريد أن يساعد أخاه يعطيه بالكتمان ثمن اللحم والفواكه وو... يشتريهم بنفسه ويأتي بهم إلي البيت ليرفع رأسه بين أولاده وزوجته، لا يفضح أخاه أمام كل الناس، حتى إذا زعلت مني زوجتي لا يعايرني وتقول لي الله يخلي أخاك الذي يطعم أولادك !

أنت يا أخي لا تهدف أن تساعد أخاك، بل تحب أن تنفش حالك على أكتاف أخيك العتال، وكرامة أولاده. أنت لا يهملك سوى أن تتحدث نساء الحي عنك وعن حسن أخلاقك.



أنا عتال منذ ثلاثين سنة، وحملت آلاف الصناديق والتنكات  
على ظهري، لكنني للأسف لا أستطيع أن أحمل الشفقة  
والتعالي التي في عينيك لي ولويوما واحدا.

أخي أبا عماد طز فيك وفي فلوسك وقبل أن تذهب، احمل  
معك ما أتيت به فلسنا بحاجة إليه.

## حبك يسكرني

قالت الزوجة لزوجها:

- اليوم عرفت يا حبيبي لماذا تأتي للبيت أحيانا وأنت سكران سألتها وهو يبخلق فيها مستغرباً.
- هل فعلا عرفت السبب؟
- طبعاً!
- هز رأسه، وأراد أن يختبر إن كانت فعلا تعرف كل شيء، فسألها: لماذا إذن؟...
- لأنك تحبني كثيراً وتسكر على أنغام حبي.

- لم يتوقع أن يكون جوابها بهذه السذاجة، اعتقد في البداية أنها تسخر منه أو أنها باعت ما في أعلي رأسها فسألها مستهزئاً.
- وكيف عرفت ذلك يا حبيبتني؟
- يوم أمس، عندما كنت أقرأ قصيدة شعر لأحد الشعراء قال فيها حبك يسكرني، فعرفت أنك تسكر من حبك لي.
- هز رأسه وقد حمد الله أنها لا تعرف سره ثم قال لها.
- وهل قرأت القسم الآخر من القصيدة؟.
- وهل للقصيدة قسم آخر؟.
- طبعاً:

- ما هو يا حبيبي؟
- الذي لم يقله الشاعر فى القسم الأول من القصيدة أنه لا يسكر وحببته معه ولكنه يسكر وهي بعيدة عنه شوقاً لها، وهياماً بها، وعندما يراها يذهب سكره كمن كان في حلم. لذلك يا حبيبتني لا تقلقي عندما أتأخر غداً في الليل لأنني سأعود لك ثملاً من حبي وغرامى بك.
- لكنك عندما تراني أراك تظل سكران حتى الصباح.
- لأن وجودك وغيابك واحد (صمت ثم استدرك قوله).. أقصد لأنني أحيانا أشتاق لك حتى وأنت أمامي.
- أحبك، أحبك، أحبك دعني أقبلك الآن.
- الآن؟ أخشى على نفسي من تلك القبلة فقد أموت سكرًا...

# أنا المفتي

اكتوبر 2005

سبحان الله ! ما أكذب هذا الرجل وما أشد خبيثه؟!  
نجح للأسف في خداع الناس، لا زال يعتقد أوروبما يوهم الناس،  
بأن الله غفر له كل ذنوبه لمجرد أنه أعلن توبته، وحج إلى بيت  
الله في مكة. صحيح إنه يقيم الصلاة ويؤدي الزكاة ويشهد أن لا  
إله إلا الله، لكن هل يكفي ذلك لقبول التوبة؟؟

ماذا عن جرائمه السابقة؟ يقال إن الشيخ محمد العراف أفتى له  
بأن توبته قبلت وأنها توبة نصوحة!!  
هكذا يفتي الشيخ محمد، وكيف له أن يعرف أن الله قبل توبته؟  
وكيف يقبلها من نصاب سرق أموال الناس المساكين سابقا، ولم  
يعد لهم فلوسهم؟ بعضهم لا زال حيا، فكيف سيكون شعور  
الضحية عندما يعرف أن الشيخ أفتى لمن سرقه بقبول توبته دون  
أن يتنازل عما ارتكب بحقه؟؟

أي شيخ وأي عراف هذا؟ أشك بنزاهته، وأشك بسعة اطلاعه،  
وبأسلوب أوضح لن أقبل فتواه التي تدل على جهله في الدين  
وتبيح ارتكاب المحظورات.  
لا يهمني إن تاب المدعوصالح العريان أم لا، كل ما يهمني أن ما  
سرقه مني يجب أن يعيده لي مع الأرباح التي جناها جراء  
تشغيل أمواله. وبعد ذلك يمكنه أن يعلن توبته.

لن يخدعني هذا الرجل بإقامته الصلاة التي يحاول أن يتقرب من  
الناس بها بعد ما عرفوا عنه ارتكابه للمعاصي.  
يبدون الناس لا يهتمها سوى المظاهر، والألقاب والقوة والنفوذ  
والمال حتى لو سرق الناس أمام أعينهم.

لم أنم ليلة البارحة وأنا أفكر في فتوى الشيخ، حاول صديقي سعيد أن يقنعني أن أسامحه، حاول إقناعي بأن الله غفر له، وأنه سيعوضني خيرا في الآخرة.  
قلت له:

- كيف عرفت يا سعيد أن الله غفر له؟
- لقد حج البيت ومن يذهب للحج يعود كيوم ولدته أمه.
- لو كان كلامك صحيحا فإن ملايين الناس تحج كل عام، والعالم الإسلامي يتقهقر للخلف.
- ماذا تقصد؟
- أقصد أنك تحكم بالمظاهر وأنا أحكم بالأعمال.

لم يعجب سعيدا ردي، فقد كنت حسب قوله قاسيا عليه، لكن كيف يسمون قول الحق قسوة؟

يا إلهي الناس مع القوي ولو كان كاذبا، ونصابا. بدأت أهذي لهذه الفتاوى التي تصدر من دون فهم. رجال الدين عندنا لا يجتهدون ولا يطورون في فتاواهم، يأخذون النص الديني كما هودون أن يشتقوا روحه وجوهرة.

كل يوم كنت أتساءل: كيف يغفر الله للمجرمين جرائمهم لمجرد أن يعلنوا توبتهم؟ أليس في ذلك تشجيعا لارتكاب المعاصي؟ فكل مواطن يمكنه أن يسرق وينهب ثم يتوب عندما يبلغ سن الخمسين.

لا زلت أذكر جاري أحمد عندما قال لي: المهم أن تكون التوبة نصوحة.

ضحكت وقلت له: وكيف سأعرف إن كانت نصوحة فقال لي: الله هو القادر على كل شيء.

- حسنا يا أحمد لكن كيف يحكم الناس على شخص أنه صالح؟
- لهم الظاهر
- كل الظاهر أوبعضه؟
- كله طبعا
- إذن كيف يصدر الشيخ فتوى بأن الله يغفر للسارق جريمته لأنه أعلن توبته؟
- وماذا تريد إذن؟ هورب العالمين لا يحتاج لإذن منك.

لم أقتنع بجوابه، ولن أقتنع بأجوبة الكثير من علماء المسلمين. أفهم أن الله قد يخفف عن المجرم العقاب، وأعلم أن الله قد يعفو عن بعض المجرمين لكن كيف يعفو الله عن مواطن سرقني دون أن يعيد إلي أموالني؟ ستقول لي إن الله سيمنحني بدلا منها حسنات يوم القيامة؟ وماذا عن أطفال الذين جاعوا بعد أن سرق هذا الوغد أموالني؟ ماذا عن الآخرين الذين كانوا ضحاياهم؟ كيف لي أن أصدق أن هذا المجرم الذي سينعم بأموالي وأموال غيري في الدنيا سيعفوه الله في الآخرة لأنه حج البيت؟ من قال هذا الكلام؟

أنا لا أصدق مثل ذلك الشيخ الجاهل الذي يصدر فتاواه يمينا وشمالا يتوهم أنه يهدي بذلك هؤلاء المجرمين للدين مع أنه بذلك يدفع بآخرين للانحراف؟؟ والتخلي عن الدين !!  
صاح الأهل وماجوا عندما قلت ذلك، فقلت لهم:

لا تفهموني غلط يا جماعة لكن لن أتنازل عن حقي لأن شيئا أفتى بقبول توبة كاذبة، تسألونني كيف عرفت أنها توبة كاذبة، حسنا لسبب بسيط جدا وهوانني وغيري من الضحايا لم نأخذ حقنا ويجب أن نأخذه.

هذا الرجل لم يكتف فقط بأنه لطش أموالني ولكنه أيضا كان يتعاطى المخدرات مع شلة الأونس، وكان أيام الجمع يذهب للصلاة في المسجد الأقصى لينال من الثواب أجرا كبيرا.

بعض الناس تسرق لتأكل، لكن صالحا كان يسرق ليزيد ثراء بعد ثراء، حتى إذا أصبح من أغنياء البلد أصبحت نادرا ما تجد من يشير إلى جرائمه، ربما لأنهم نسوا الماضي، أولأنهم يتوهمون أن الله غفر له لأنهم يسمعون عن تبرعاته لبناء جامع في البلد أولتبرعاته لدور الأيتام... إلخ، وربما سكتوا لأن مصالحهم تتطلب أن يسكتوا ويكونوا مع التيار.

لا أدري لماذا أنقم على الشيخ محمد وأطالب بمحاكمة هؤلاء الشيوخ، أنا شخصا لن أوافق علي ما أفتى به بخصوص توبة صالح، وكونه يلبس عمامة لا يعني أنه يفهم الدين أكثر مني، لا

لا بد من تغيير تلك العقلية المحبطة، ولم يبق لي إلا أن أنفذ ما  
نصحتني به أحد الأصدقاء، أن أعين نفسي مفتيا للعالم كله يصدر  
فتاواه دفاعا عن الناس لا تبريرا لجرائمهم.

# عقاب الأرض قبل عقاب السماء

عادل سالم  
سبتمبر 2005

تغير لون وجهها حتى أصبح كالدم القاني، اهتز جسمها، اقشعر بدنها وكأنها أحست أن شعر رأسها قد وقف على رجليه، كادت تسقط على الأرض بعد أن أحست بدوار شديد، لم تمالك أعصابها وهي تستمع لما حل بأختها على يديه.

كانت عفاف كالمجنونة، قطبت حاجبيها وقالت لأختها باسمه بعد أن ضمتها إلى صدرها وبدأت تجفف دموعها عن خدودها الجميلة.

- اهديني يا باسمه وحدثيني كيف حدث ذلك؟  
قالت باسمه:

- هاتفني قائلاً: دعي أمك في السوق وتعالني لتحضري لي طعام الغداء فأنا جائع، قلت له: يا والدي غدا فرحي وأنا سأشتري بعض الحاجيات بسرعة، فصار يصرخ بي، فقالت لي أمي: اذهبي وأنا سأشتري لك ما تريدين وأعود.

ذهبت إلى البيت لأعد له طعام الغداء.. وعندما دخلت المطبخ، هجم علي وفعل فعلته.. لا تذكريني لا أريد أن أتذكر..  
الحيوان اغتصبي كأنني لا أعني له شيئاً، كأنني لم أكن ابنته.

ثارت نائرة أختها عفاف..

- ألم تستطعي الإفلات منه؟

- انهزمت يا عفاف، فقدت كل قدرة على المقاومة، لم أتوقع أن تأتيني الضربة من الخلف، من الجهة التي أثق بها، كنت مثل الجندي الواقف على الجبهة فيفاجأ بالقصف من الحلف من رفيق سلاحه فلا يعرف ماذا يفعل وعلى من يطلق النار.

عندما يكون المجرم أبي الذي عشت معه عشرين سنة فماذا عساي أن أقاوم؟!.

هول الجريمة فأجاني، قتلني، قتل كل ذرة مقاومة عندي، إحساس المناعة في عقلي تفتت مثل المصاب بمرض الإيدز.

الوحش المجرم قال لي:

- غداً سوف تتزوجين ولن يشعر أحد بالجريمة.

انتهيت يا عفاف، لم أعد أحب الحياة. أتمنى الموت، أتمنى الموت الآن.

صمتت ثم قالت ودموعها لم تتوقف..

- ذهبت إليه، لعدنان خطيبي، أزوجي الذي كنت سأزف إليه غداً، كنت أتوقع أن يضمني لصدره يحميني، يخفف عني، كنت بحاجة إليه في تلك الفترة، فكم قال لي أنه يحبني، وكم غنى لي أغاني الحب والهيام.

أتدريين ماذا قال لي..؟

- أنت طالق يا باسمة، أريد كل ما اشتريته لك.

ردت عليها عفاف على الفور

- الحيوان النذل، هؤلاء الرجال مجرمون، هم القتلّة دائماً ونحن الضحية، ما الفرق بينه وبين أبيك؟ ثم ضربت الطاولة بيديها فوقعت الكأس على الأرض لا فرق بين أبيك المجرم وزوجك الذي كافأ أباك بدلا من حمايتك والدفاع عنك وتعويضك الحنان. جريمتان بشعتان فى يوم واحد؟ والضحية نفسها لماذا يا رب؟ لماذا كل هذا الظلم يا رب؟ صمتت ثم أكملت حديثها:

- عشرون عاما وأن أدعوك أن تعاقبه بداء السرطان فلم أر شيئا، عشرون عاما وأنا أعاني مثل أختي الآن، عشرون عاما وأنا أبكي من الداخل وأقول يارب انتقامك فلم أر شيئا، وها هونفس الأب المجرم يغتصب ابنته الثانية، بعد أن اغتصمني قبلها ودمر حياتي ولم يزل.

كلما أتذكر صورة هذا الوحش يلقي بجنته التنتة فوقي أحس بزلزال كبير يصيب كل ذرة في جسمي، لا أعرف كيف أصف لك مقدار الألم النفسي الذي أعيشه وأنا أقارن بين أب كان يحملني صغيرة يلعب معي وأب ارتكب جريمته البشعة معي.

لا أستطيع أن أرى صورتين لنفس الشخص، هي صورة لا غير، صورة حيوان متوحش يكشف عن أنيابه وهي نفس الانياب التي كان صاحبها يلعب معي بها وأنا صغيرة.

نظرت في عيني باسمة وقالت بعد تفكير:

- اهدهئي يا حبيبتي، تعالي اغسلي وجهك واستريحي قليلا لابد من عمل ما.

دخلت عفاف غرفة نومها، وأخرجت مسدس زوجها المخبأ في مكان سري، عبأته بالرصاص ووضعت في حقيبتها الصغيرة ثم خرجت لتقول لأختها: انتظري هنا في البيت وعندما يعود الأولاد بعد المدرسة تظاهري بأن كل شيء عادي.

- وصلت عفاف بيت والديها، قرعت الجرس، ففتح الأب الباب، لم تكن أمها قد وصلت بعد.

استقبلها أبوها قائلا:

- أهلا عفاف، منذ مدة طويلة لم تزورينا، تفضلي جئت في الوقت المناسب.

بعد أن دخلت بدأ أبوها يتمتم بينه وبين نفسه

جاءت برجليها، بيدوانه فرح كبير فعلاً، لقد امتلأت عفاف بعكس أختها، لكنها لا زالت تحتفظ بشبابها، ليس مثل أمها الخرفانة.

هذه ابنتي وهذا حقي، لماذا أربي البنت عشريين عاما لينعم بها غيرى؟

- تفضلي يا عفاف اجلسي.



- عرفت عفاف ما يدور بخلد أبيها، فهي تعرفه جيداً الآن، جاءت لتصفية الحساب معه.
- قالت له بغضب:
- ماذا فعلت باسمه؟
- ضحك..
- لاشيء غريب، مثلما يفعل كل الرجال.. ها ها ها..
- أترتك جريمة وتضحك؟.
- اخرسي، أية جريمة، أنا أبوك، وأنت جئت مني، من هنا، وأشار بيده..
- استشاطت غضباً..
- أنت لست أبا، أنت أحقر رجل في التاريخ، حتى هتلر كان أكثر رحمة منك.
- وماذا يهمك أنت؟ هل جئت لتحلي محلها؟.
- يا كلب، لقد جئت لأصفي حسابي معك
- معي كيف ستغتصبيني؟.
- وقف وبدء يخلع بنطلونه رويداً رويداً كأنه في فيلم سينمائي..
- فتحت الشنطة، وضعت يدها اليمنى فيها، رمى بنطلونه على الكرسي واستدار نحوها. أخرجت مسدسها من حقيبتها.. وصوته نحوه.
- ارتعب، غابت الضحكة عن وجهه، تغير لونه قال لها:
- ما هذا أتقتلين أباك لأنه يمزح معك؟.
- هل خفت أيها الحقير الكلب؟.
- اخرسي، هذا المسدس هوالذي يحميك مني الآن لكن ستدفعين الثمن غالياً.
- ليس قبل أن تدفعه أنت.
- كيف من يجبرني؟! أنت؟
- ألم يهتز لك ضمير وأنت تقتل ابنتك بيديك؟ ألم تعرف أن زفافها غداً؟.
- ضعي المسدس جانبا وسوف نتفاهم.
- نتفاهم على ماذا؟ هل بقي شيء لنتفاهم عليه؟.
- من يعيد البسمة لباسمة؟ من يعيد لها شرفها؟ من يغسل عارها أيها الحقير؟
- قال لها بعد أن رأى الشرر بعينها.
- إن الله غفور رحيم. ثم يمكن إصلاح ذلك أعرف طبيبا يمكنه أن يعيد غشاء البكارة كما كان.
- ضحكت بأعلى صوتها..
- غفور رحيم؟.
- منذ متى اكتشفت ذلك؟.
- الآن، أعلن توبتي، سامحيني، اتركيني لله ليعاقبني؟.
- ليس قبل أن أعاقبك في الأرض.
- ستدخلين السجن يا عفاف..
- السجن أهون من الجروح التي خلقتها في نفسي وفي نفس أختي باسمه.

- خذيني للشرطة، دعهم يعاقبونني، سأعترف أمامهم بما فعلت.
- وماذا سيحكمون عليك، عشر سنوات، عشرين سنة، ثم يخضمون نصفها بعد ذلك بسبب حسن السلوك و.. و.. هذا لا يكفي ليداوي جرحنا الذي سيعيش معنا كل ثانية، كل يوم وكل لحظة، إنه كابوس أبدي لن يموت إلا بموتنا.
- وماذا ستفعلين بي؟
- سأعاقبك على قدر جريمتك؟
- وبماذا حكمت علي؟
- الإعدام؟
- صرخ بأعلى صوته
- ماذا تقولين؟ أولادك بحاجة لك.
- أيهمك أمري يا حيوان؟
- طبعاً يهمني.
- ولماذا فعلتها؟ لماذا ارتكبت جرائمك؟ لماذا اغتصبت ابنتيك؟
- أهذا كل ما كان يمكنك تقديمه لنا، أختي خسرت زوجها الكلب مثلك؟ وأنا اضطررت أن أتزوج رجلاً كان محسوباً على الزعران وتجار المخدرات.

قالت له وهي ترمقه بنظرات أخيرة:  
 - هل تعلم أن قتلك لن يشفي غليلي؟ أريد أن أمزق لحمك وأشويه على النار وأنت حي لتري كيف تحرق في الأرض قبل أن تحرق غداً في نار جهنم.  
 أيها الأب المجرم، أيها القاتل لن أتركك تنعم بالحياة بعد الآن.

رفعت يدها للأعلى وصوت مسدسها نحو صدره وضغطت على الزناد.  
 - طلقة، اثنتان..  
 سقط على الأرض، ثم تابعت الثالثة في رأسه والرابعة بين رجله...  
 لفظ أبوها أنفاسه الأخيرة، بقيت طلقة صوبتها باتجاه رأسه مرة أخرى وأطلقتها ففجرت بها رأسه.

كانت عفاف تفرغ بالطلقات ألامها وعذابها طيلة عشرين سنة مضت، اغتصبها وعمرها 15 سنة، كانت تنتقم ليس فقط لنفسها ولباسمة وإنما لكل الضحايا المعذبات في هذا العالم.

كانت تفرغ فيه كرهها لكل الرجال مثل عدنان زوج أختها الذي تخلى عنها عندما كانت بحاجة له، نسي عدنان كل حبه لباسمة، نسي عندما كان يطاردها أيام المدرسة ويرسل لها رسائل الغرام، نسي عندما كان سيقتل أحد الطلاب لأنه تجرأ وحاول مغازلتها.

الرجال يمارسون جرائمهم مرتين مرة حين يغتصبون المرأة ومرة حين يتخلون عنها بعد اغتصابها.

أعدت عفاف المسدس إلى حقيبة يدها، خرجت من الشقة وأغلقت الباب، سألتها الجيران هل حصل شيء عندكم؟ لا، لقد كان هذا صوت التلفزيون كنا نحضر فلما بوليسيا.

لم يصدق سكان العمارة القصة لكنهم لم يشكوا بأن ابنة صاحب البيت قد قتلت أباهما. عادت عفاف إلى بيتها، كانت باسمه والأولاد بانتظارها.

هل تناولتم الغذاء؟ سألت عفاف أولادها الثلاثة.

نعم

أذهبوا الآن لبيت عمكم وسألحق بكم بعد قليل.

حسنا، هل سنسهر عندهم؟

طبعاً سهرة طويلة، قبلتهم جميعاً، ضمتهم لصدرها، كأنها تودعهم.

بعدها غادروا البيت قالت باسمه.

عزيزتي، لقد انتقمتم لك، انتقمتم لنفسي لما فعله بي أبوك منذ

عشرين سنة، لقد قتلته.

فغرت باسمه فاهما وقالت:

وهل مات؟

طبعاً قلت لك قتلته وليس جرحته.

فبكت باسمه

وهل سيسجنوك الآن؟

لا تخافي علي سأكون بخير، حافظي على أولادي بغيابي وبلغني

زوجي عندما يعود، لا تقلقي فزوجي المحسوب على الزعران لديه رحمة

أكثر من كثيرين يدعون أنهم أهل الشرف والكرامة، سوف يقف معي ومعك

ولن يتركنا فريسة لأحد، أما أنت فيامكانك أن تعيشي مع أمي فلم يعد

يعيش معها ذلك الحقيقير.

أعرف ما يعنيه لك ذلك البيت، انتقلوا للعيش في شقة أخرى، قبلي

أمي عني، سأذهب لكي أسلم نفسي للشرطة.

لماذا لطخت يديك بدم وسخ؟ كان عليك أن تتركه لربه ليحاسبه،

فأولادك بحاجة لك.

ثم ألقت برأسها على كتف أختها، تعانقا طويلاً وقالت لها قبل أن

تغادر البيت يا باسمه؟

عشرون سنة وأنا أدعو الله أن ينتقم لي!

عشرون عاماً وأنا أتألم كلما تذكرت الجريمة.

عشرون عاماً وأنا أقول يا رب خذ حقي منه.

- إن الله يمهل ولا يهمل قالت باسمه

- لا يمهل أكثر من عشرين سنة، اليوم عرفت لماذا لم يستجب الله لنا، هل تعرفين يا باسمة لماذا؟
- هزت باسمة رأسها نافية علمها بالجواب. فقالت عفاف:
- لقد اقتنعت اليوم أن الله كان يصرخ فينا ويقول دافعوا عن أنفسكن، انتقمين من القتلة.
- صمتت ثم قالت:
- أنه يقول لنا: قبل أن أعاقب المجرم في السماء عاقبه في الأرض. لوعاقبته قبل عشرين سنة لما حل بك ما حل من ظلم واضطهاد..
- وداعا.. ثم بكت..
- وداعا قالت باسمة، الله معك يا عفاف.
- 

حكمت المحكمة حضورياً على المتهممة عفاف، المتهممة بقتل أبيها إبراهيم العريان بالسجن لمدة 8 سنوات.

- يحيا العدل، صاحت إحدى الجالسات بالمحكمة فصرخت عفاف.
- أين العدل؟
- فرد عليها المحامي.
- يا عفاف أنت متهممة بجريمة قتل عقوبتها السجن المؤبد.
- فردت عليه
- ألا يستحق الإعدام؟.
- لا يستحق الإعدام حسب القانون ولو استحق الإعدام فهذه مهمة الدولة وليس الضحية.
- وماذا ستحكم عليه الدولة؟ عدة سنوات يعود بعدها طليقاً وماذا عن الضحية؟ كم سنة ستظل ساهرة لا تغفولها عين؟
- كم امرأة اغتصبت تركها زوجها أو خطيبها أو حبيبها وحتى أهلها؟.
- كم فرد في المجتمع سيجعلها حديثه اليومي ويتهامس عليها المجرمون؟.
- لا هذا ليس عدلاً.
- ثم صرخت كلماتها الأخيرة قبل أن يسحبوها من المحكمة:

على حكومات العالم أن تغير قوانينها لنصبح المرأة الضحية التي تغتصب هي القاضي الذي يحاكم المجرم ويصدر العقاب المناسب عليه وينفذه بالطريقة التي تشفي غليلها.

## عادل سالم في سطور

### صدر له:

- ديوان شعر بعنوان عاشق الأرض عام 1982.
- نداء من وراء القضبان، شعر، عام 1985.
- دراسة صادرة عن مركز الدراسات العمالية في رام الله عام 1990 بعنوان الطبقة العاملة الفلسطينية والحركة النقابية في الضفة والقطاع من عام 1967 الى 1987 وقد صدرت
- نفس الدراسة عن نفس المصدر باللغة الانكليزية عام 1991
- عن دار الكلمة في مصر عام 2006 دراسة بعنوان (أسرانا خلف القضبان) عن واقع الأسرى الفلسطينيين والعرب في سجون الاحتلال الصهيوني.
- لعيون الكرت الأخضر، مجموعة قصصية، عن المؤسسة العربية للنشر في بيروت عام 2006.
- مجموعة **ليش ليش ياجارة؟** عن المؤسسة العربية للنشر في بيروت ، نهاية 2007 .
- يشغل اليوم مدير تحرير ديوان العرب

[www.diwanalarab.com](http://www.diwanalarab.com)

- موقعه الشخصي على الشبكة هو:

[www.adelsalem.com](http://www.adelsalem.com)

## ليش جارة

رقم الصفحة	اسم القصة
2	كلمة المؤلف
3	الضحية لا تنسى جلادها
9	العائد من الموت
13	رحلة في عيون حبيبتني
17	الحالمة بالسعادة
19	طفلة بألف حكاية
28	رأيت نفسي عاريا
33	عصام لا يشبه عيزرا
41	معك جنبه بتسوى اتنين
44	وانتصر الحب على السكين
48	ليش ليش يا جارة
53	لن أظل خادمة لزوجة أبي
59	من أجل دلو ماء
62	هل صحيح يا عمي محمد؟
66	اللص الوفي
70	أخي رجب
74	حك يسكرني
75	أنا المفتي
79	عقاب الأرض قبل عقاب السماء
85	لمحة عن الكاتب
86	الفهرس